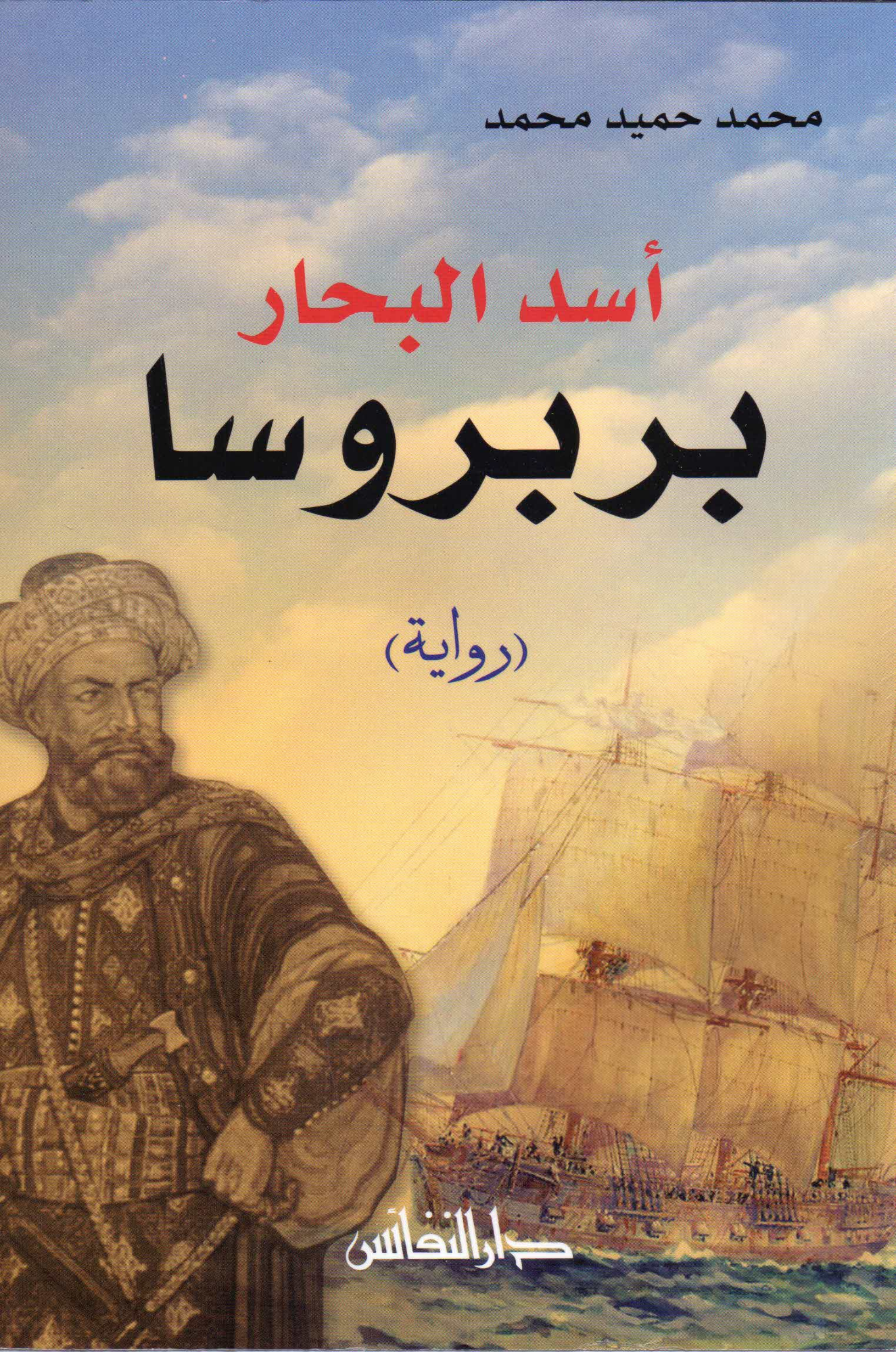


محمد حميد محمد
أسد البحار
بربروسا
(رواية)
دار النفائس



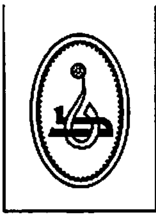
«هذه ليست سيرة ذاتية خالصة - كما يقول كاتبها - ولا هي رواية من صنع الخيال، إنما هي قطرة عطرة من تاريخنا الجميل أحببت أن يشاركني القارئ في تفاصيلها، فكتبتها حلماً»، ومن حقه أن يحلم في زمن سبات العرب والمسلمين الطويل.

وحلمه في هذه الرواية هو من أحلام اليقظة، وينبع من لقطات في اللاوعي، تسربت من صفحات مشرقة في حياة أبطال صنعوا لنا التاريخ.

فالرواية تحكي قصة طرد المسلمين من الأندلس، وثورة عروج وثلة من المؤمنين، كسروا صلف الفرنجة وحرموهم الأمان في المتوسط، ومنعوهم الاستقرار في سواحل شمالي أفريقيا. وتروي كيف استشهد عروج واستلم الراية، وحمل الأمانة، أخوه خير الدين بربروس، فوضع الحجر الأساس في بناء دولة الجزائر، وتولى قيادة الأسطول العثماني، وترك في التاريخ العربي الإسلامي صفحات مشرقة يجدر بشبابنا قراءتها والاتعاظ بها.

الناشر


ISBN 978-9953-18-477-7
9789953184777



أسد البحار بربروسا

(روايـــــــة)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه ليست سيرة ذاتية خالصة، ولا هي رواية من صنع الخيال،
إنما هي قطرة عطرة من تاريخنا الجميل احببت أن يشاركني
القارئ بتفاصيلها فكتبتها حلماً

أسد البحار بربروسا

(روايـــــــة)

تأليف

محمد حميد محمد

دار النفائس

أسد البحار بربروسا

تاليف: محمد حميد محمد

الطبعة الأولى: 1431هـ ـ 2010م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 477 - 7

Publisher





DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-distribution

Verdun Str - Safiedine bldg.

P.o.Box 14-5152

Zip code 1105-2020

Fax: 009611 861367

Tel: 00961 1 803152 - 810194.

Beirut - Lebanon

دار النفائس

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان ـ بناية الصباح

وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14

الرمز البريدي: 2020 ـ 1105

فاكس: 009611861367

هاتف: 803152 ـ 009611810194

بيروت ـ لبنان

Email: alnafaes@yahoo.com

Web Site: WWW.alnafaes.com

[١]
دماءٌ على جدران الأندلس

في قاعة العرش في قصر الحمراء، الزاهية بكل آيات الجمال والإبداع العمراني الإسلامي، المؤطر بآيات من القرآن الكريم فيما راحت أعين الموجودين الإسبان تطوف بالمكان وأرجائه في دهشة وإعجاب تتأمل بشغف وريبة ما تقع عليه، بينما جلس ملك غرناطة أبو عبد الله بن الأحمر وخلفه ثلة من مساعديه يستمعون بأسى وحزن إلى شروط الاستسلام التي راح يتلوها من مخطوط أحد الإسبان المستعربين.. إنها الأندلس سنة ٨٩٧هـ.

١ ـ إطلاق جميع الأسرى المسلمين لدى مملكة قشتالة.

٢ ـ تأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

٣ ـ احتفاظ المسلمين بشريعتهم وقضائهم ونظمهم بإشراف حاكم إسباني.

٤ ـ تأمين حرية الدين والشعائر والحفاظ على المساجد والأوقاف.

٥ ـ أن لا يدخل مسيحي إلى مسجد أو دار مسلم.

٦ ـ أن يسير المسلم في ديار الإسبان آمناً لا يحمل علامة مميزة.

٧ ـ أن يجتاز إلى إفريقية من يشاء من المسلمين في سفن ملك الإسبان لمدة ثلاث سنوات من دون مقابل.

٨ ـ أن لا يقهر مسلم أو مسلمة على التنصر.

٩ ـ أن يعامل الحاكم الإسباني المسلمين بالرفق والعدل.

١٠ ـ أن يوافق البابا على هذه الوثيقة.. وقعت في ٢٥ كانون أول من العام ١٤٩٢ من قبل ملك غرناطة مولاي أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الأحمر، وفرنانديز الخامس وإزابيللا، ملكي أرغون وقشتالة..

التفتت الملكة إلى أمير غرناطة الشاب الذي استكان في مقعده صامتاً حزيناً وبابتسامة خبيثة رددت..

ـ والآن أيها الملك؟ هل من شيء آخر تود إضافته أو قوله؟

يرمقها بنظرة هادئة وقد شابك بين أصابعه أمام وجهه.. فهو يدرك أنه الأمر بصيغة السؤال. فإزابيللا وزوجها انتظرا هذه اللحظة طويلاً، وهاقد تحقق لهما ما تطلعا إليه وعملا من أجله.. طردُ العرب المسلمين من الأندلس بعد أكثر من ثمانية قرون نشروا فيها الحضارة والعلم والعدل والأمان.. إنه عهد جديد، عهدٌ أقل ما يقال فيه إنه ولد قاتلاً لكل ما سبق.. ثم رفع رأسه وبصوت حزين قال:

ـ كلا أيتها الملكة.. غداً صباحاً سأجمع حاشيتي وأهل بيتي ونرحل مع من يحب أن يرحل معنا من رعايانا.

بادرته قائلة:

- حسناً إذاً. . (ثم تلتفت إلى أحد مساعديها وتناديه). . ألفونسو. .

- مولاتي الملكة.

- غداً صباحاً احرص بنفسك على أن ينال الملك أبو عبد الله ومن يصحبه أقصى التسهيلات الممكنة لمساعدته في التوجه إلى حيث يريد.

- أمر مليكتي. .

تنهض ومعها حاشيتها ومرافقوها، فيما يبقى أبو عبد الله ومن معه على حالهم، مسمرين في مكانهم، فتلتفت إليهم قائلة:

- علينا الرحيل للاستعداد ليوم غد.

فيهز أبو عبد الله رأسه موافقاً فتخرج ومن معها ليبقى هو وحاشيته مطرقي الرؤوس تنتابهم هواجس وأفكار شتى، بانتظار يوم غد.

هذه ثمرة ما سمَّوه «حرب الاسترداد» التي شنها الملكان فرنانديز وإزابيللا قبل ما يقارب خمسة عشر عاماً ختمت بالاستيلاء على غرناطة آخر معقل من معاقل الإسلام في الأندلس. . الزواج المقدس بين مملكتي أرجون وقشتالة يؤتي ثماره، إلا أنها ثمار مرة يملؤها العفن والسم والفساد وطعم الدم.

يتحرك الوفد القشتالي كبير العدد. . وأثناء اجتيازه لساحة

نافورة الأُسود السبعة في القصر يتناهى إلى أسماعهم صوت الأذان قوياً مجلجلاً.. فتتوقف إزابيللا وفرنانديز والآخرون.. ترفع بصرها إلى أعالي القصر، وتتأمل أرجاءه فيبادرها فرنانديز قائلاً:

ـ ما الأمر أيتها الملكة؟ هل ثمة سوء؟!!

ـ ذلك النداء البغيض.

ـ آه؟ لا عليك يا عزيزتي؟ لم يعد شيئاً مهماً؟ فكل ذلك أصبح من الماضي.

ـ صدقت؟ وأي ماضٍ.. آن لهذا النداء بعد أكثر من ثمانمئة عام من ترديده كل يوم أن يتوقف الآن وإلى الأبد!

وتبتسم ويبتسم معها زوجها والمرافقون ثم يواصلون طريقهم إلى الخارج..

* * *

نعم توقف الأذان وتوقفت معه الحياة الكريمة المختصرة في هذه الأصقاع لتحلَّ محلها الفوضى والجهل والتخلف والفساد والظلم.. لم تلد أيامك المبجلة أيَّتها الملكة سوى الموت والطغيان ولم تنشر إلا الجهالة والوحشية لكل ما هو عربي مسلم.. تُرى أي شيطان يسكن روحك يا إزابيللا.

بعد سنة من سقوط غرناطة، وفي إحدى طرقاتها يجري أحد الفتيان المسلمين.. (علي الأندلسي).. بسرعة محاولاً الفرار على ما يبدو، وبالفعل فقد كان يفر من ثلة من فرسان الإسبان يطاردونه على جيادهم في الطرقات الضيقة التي خلت من

الناس تقريباً، فيما الفزع يكاد يستولي على الفتى..

يدرك بأن القبض عليه من قبل هؤلاء المتوحشين يعني الموت، ولكن قبل ذلك التعذيب البشع على أيدي جلاوزة محاكم التفتيش التي أنشأها فرنانديز وزوجته الملكة إزابيللا للتحقيق، ومن ثم تعذيب كل من يثبت عليه جرم الانتماء إلى «الموريسكيين».. (بمعنى المغربيين الصغار، وهو الاسم الذي بات يعرف به المسلمون الأندلسيون) أو له صلة بهم من قريب أو من بعيد، لذا لا بد له أن ينجو بنفسه مهما كلفه الأمر... وتتواصل المطاردة حتى ينجح في تضليل مطارديه ويختفي عنهم في أحد الأزقة، فيتوقف الفرسان.. يردد قائدهم:

- بسرعة طوّقوا المكان وأغلقوا جميع المخارج، لا تدعوا ذلك الموريسكي يفر منكم؟ اجلبوه إليّ حياً أو ميتاً.. لا أريد لأي منهم، أو من قادتهم، أن يفر منكم يا رجال.

ووسط هذا الصراخ يلمحونه ينطلق من زقاق بعيد فيتسابقون إليه ويواصلون الركض خلفه، فيخترق السوق وهم خلفه حتى يصل إلى أحد المنعطفات فينعطف فيه فإذا به ذو نهاية مغلقة.. حائط يقف في وجهه فأُسقط في يده وبسرعة وقبل أن يستدرك ما أصابه يفاجأ بصهيل الخيل خلفه فيلتفت ليرى الفرسان يحيطون به من كل جانب، فيترجل قائدهم عن صهوة حصانه مبتسماً وهو يتقدم نحوه، فيما أنفاس الفتى المسلم تتصاعد من الإجهاد..

- أخيراً أيها المسلم القذر وقعت بأيدينا.. أتجرؤ على

مخالفة المرسوم الملكي بتحريم الصلاة وشعائر المسلمين وتجاهر بقراءة القرآن على الملأ..

يتراجع بقلق، فيما القائد شاهراً سيفه بوجهه، يقول:

ـ ليس من حقكم أن تمنعونا من ممارسة شعائر ديننا؟ أليس هذا ما نصت عليه معاهدة تسليم المدينة قبل سنة؟

يضحك القائد مقهقهاً..

ـ أيها الأحمق؟ أما آن لك ولأمثالك أن تدركوا أن هذه الاتفاقية ما عاد لها وجود؟ وأن الاتفاقيات والمعاهدات لا يحترمها إلا الضعفاء فقط!

ـ أوغاد خونة..

وما أن اقترب القائد منه أكثر حتى بصق الفتى في وجهه..

ـ أقسم لأجعلنك تدفع ثمن هذا غالياً.. أوثقوه.

ـ ويسارع اثنان من الجند لمحاولة توثيقه بحبل غليظ شُدَّ طرفه إلى سرج القائد، لكنه كان أسرع منهما وأخف حركة إذ يباغتهما ويستولي على سيف أحدهما فيقتل به الآخر، ويستولي أيضاً على سيفه، فينبري له الآخرون.. أربعة هم كل من بقي ينضم إليهم قائدهم أيضاً لمقاتلة الفتى الذي تسلح بالسيفين وأجاد القتال بهما معاً، ولم يمض وقت طويل حتى تمكن الفتى من قتل الجميع بمن فيهم القائد الذي حاول الفرار على جواده إلا أن رمية موفقة من الفتى بأحد السيفين أردته قتيلاً.. ثم يقرر الفرار قبل أن يكتشف أمره أو يأتي المزيد من الجند..

* * *

مع حلول الظلام كان الفتى يقف على شاطئ البحر متأملاً في صمت، وعن بعد، معالم مدينته غرناطة وقد زينت أسوارها المشاعل فزهت وسط الظلام الدامس..

ـ إيه يا أندلس.. هكذا نتركك مجبرين فارين بعد أن كنت وكنا أجمل أنشودة تغنى بها الدهر.. نفارقك يا أجمل بقاع الأرض بعد أن زهت أرجاؤك بخير ما حملت.. ترى إلى لقاء أم تراه الفراق بلا عودة أم.. لا يقاطعه سوى صوت هدير الأمواج وهي تداعب الساحل المظلم حتى اختلط به صوت هامس يناديه..

ـ علي.. علي.. (يلتفت إليه فإذا به رجل يقف بجوار أحد القوارب الكبيرة وقد سبقه إليه آخرون امتلأ بهم يهمون بالإبحار)..

ـ هيا سنتأخر على السفينة.

فسارع إلى اللحاق به، وبعد أن استقر على المركب جلس واستأنف النظر إلى المدينة التي راحت تبتعد عنهم جميعاً مع توغل القارب في البحر.. علَّق أحدهم:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. من كان يصدق أن هذا يحدث لنا بعد أن كنا حكاماً وأهلاً لهذه الجزيرة.. بعد أكثر من ثمانية قرون من الإسلام والعروبة نترك مدننا وأرضنا لنفر منها إلى أرض لا نعرفها.

ـ المهم ألا نفتن بديننا.. بادره آخر..

عاد هو قائلاً:

ـ وداعاً! أم أقول إلى لقاء يا أندلس؟ أترانا سنعود إليك يوماً وتحتضننا ربوعك كما كنا..

ولا يعلِّق الفتى مكتفياً بالاستماع أحياناً وبالشرود أخرى..

* * *

مع بزوغ أول خيوط الفجر كان كل من في القارب تقريباً بمن فيهم الأطفال والنساء قد استسلم للنوم حين باغتهم صوت من بقي لقيادة القارب صارخاً..

ـ إسبان.. استيقظوا..

فيهب الجميع مذعورين.

ـ ما الأمر؟!! سأل أحد الرجال..

ـ سفينة إسبانية..

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون؟ لقد قضي علينا..

تتعالى صرخات النساء والأطفال ويلهج الجميع بالدعاء.. غمغم آخر..

ـ لا تقل ذلك؟ وادع الله أن يكونوا قراصنة لا إسباناً.

ـ وما الفرق؟ فالاثنان أسوأ من بعض.

ـ ليس تماماً يا صديقي؟ فالإسبان خرجوا للبحث عنا، أما القراصنة فهم يبحثون عن المال فإن رشوناهم سيخلون سبيلنا ولا يعترضوننا.

غمغمت امرأة..

ـ رحماك يا رب.. اللهم الطف بنا ونجِّنا من هؤلاء الأشرار..

ينبري الفتى من وسط الجميع..

ـ اهدؤوا.. اهدؤوا.. لن يستطيعوا الوصول إلينا قبل أن نقاتلهم..

ـ أجننت يا فتى؟ ما هذا الذي تهذي به؟!!

ـ ما بال صاحبك يا إسماعيل؟!!

يلتفت إليه فتى في مثل سنه..

ـ كف عن ذلك يا علي واصمت..

لا يأبه بكلامه.. بغضب.. ويصرخ:

ـ ويحكم؟ حتى حرمكم وأبناؤكم لا تريدون الدفاع عنهم خوفاً من الموت؟ أي نوعٍ من المسلمين أنتم؟! قاتلكم الله..

وقبل أن يكمل إذا بصبي يلمح شيئاً في الأفق..

ـ انظروا، إنها تتراجع..

* * *

وبالفعل فقد بدأت السفينة الإسبانية بالاستدارة والابتعاد عن طريق القارب؛ ولم يكن السبب سوى ظهور سفينة أخرى بدت تقترب.. كانت تلك السفينة تحمل علماً أحمر قد توسطه هلال ونجمة أبيضان.. ما أن لمحه القائد حتى غمغم:

ـ سفينة إسلامية..

هلل الجميع، وكبَّر الرجال ابتهاجاً وفرحاً..

* * *

اقتربت السفينتان، الإسلامية والإسبانية، حتى التصقتا، وبان قائد السفينة الأولى شاباً جاوز منتصف العقد الثاني من عمره بلحية خفيفة وشاربين.. وما أن التصقت السفينتان حتى بادر أصحابه.. منادياً مكبراً:

ـ الله أكبر، الآن يا رجال..

وما أن سمع رجاله تكبيره حتى انقضوا على الإسبان ونشبت معركة حامية بين الطرفين.. أبدى فيها البحارة المسلمون صنوفاً من براعة القتال لم يشهد الإسبان مثيلاً لها من قبل.. فمن مقاتل برمح يستخدمه بين الحين والآخر للقفز في الهواء وضرب أكثر من خصم إلى متأرجح بالحبل كما تفعل القرود، فلا يستطيع أكثر من أربعة جنود القبض عليه أو صدَّ ضرباته، إلى مقاتل ضخم ترعب عضلاته المفتولة الخصوم، إلى آخرين استخدموا أكثر من سلاح في الوقت نفسه، إلى غير أولئك ممن يجيدون القتال بالسيف والخنجر والأرجل والقبضات؛ ما أذهل الإسبان وجعل بعضهم يفضل القفز إلى الماء بدل المواجهة والموت.

* * *

وانتهت المعركة مع طلوع الشمس بانتصار المسلمين وأسر السفينة الإسبانية مع من تبقَّى على ظهرها، ثم توجهت السفينة المسلمة لانتشال القارب بمن فيه. وبعد أن استقر الجميع على سطح السفينة هبط من مقدمتها المرتفعة قائدها مرحِّباً..

ـ السلام عليكم.. (الجميع يرد التحية..).. أهلاً وسهلاً

بكم. أنا أدعى القبطان عروج.. ويسعدني أن تكونوا معنا.

ـ بالنيابة عن الجميع أشكرك أيها القائد على صنيعك وعلى إنقاذنا من هؤلاء الأوغاد.. قال قائد المركب..

ابتسم عروج وربت على كتفه..

ـ لا عليك يا أخي.. هدِّئوا من روعكم فقد وصلتم إلى أمانكم وقد انتهى كل شيء.. والآن سندعكم تأخذون قسطاً من الراحة فلا بد أن رحلتكم من الأندلس كانت شاقة..

بادر أحد الناجين..

ـ جدّاً يا سيدي! لا تتخيل مدى العذاب الذي كنا نعانيه، ولا يزال إخواننا هناك يعانونه على أيدي أولئك الكفار المارقين

ـ طِبْ نفساً أيها الرجل الطيب! كل شيء سينتهي بإذن الله تعالى.

قالها عروج الذي آلى على نفسه أن يكون منقذاً لأولئك الفارين من جحيم الإسبان في الأندلس.. عرفه أصحابه وأتباعه وكذا من أنقذهم مجاهداً مخلصاً، وفارساً نبيلاً شجاعاً وكريماً؛ فملأت حكايات بطولاته ومواجهاته مع الإسبان وانتصاراته عليهم الآفاق.. أما أعداؤه الأوروبيون، والإسبان على وجه الخصوص فقد كانوا وكعادتهم في قلب الحقائق وتشويه كل ما يتعارض وغاياتهم السيئة على الضدِّ من حقيقته.. فبالنسبة إليهم كان لصّاً مجرماً، قرصاناً، إرهابيّاً، من الدرجة الأولى، لا هم له هو ومن معه إلا الاعتداء على

الآمنين والسفن التجارية.. والحقيقة غير ذلك بالتأكيد. إنها رد العدوان بأبهى وأشرف صورة.. تلك هي حقيقة أسطورة وحوش البحر.. عروج وشقيقه بربروسا خير الدين وبحارته.

* * *

مثله مثل بقية الأصقاع الأوروبية التي وصلت إليها جحافل الفاتحين العثمانيين.. راح أرخبيل جزر مدللي، الواقع شمالي غربي أزمير وجنوب مضيق الدردنيل، يزدحم بالقادمين الجدد إليه من المسلمين بعد استتباب الأمر لحكامه الجدد.. جاؤوا يحملون أسلوباً جديداً من الحياة لم يعهده سكانه اليونانيون من قبل، أسلوباً حمل طعم الحياة الشرقية بحشمتها ووقارها وسمو أخلاقها ليمتزج مع مرور الوقت بعادات وتقاليد سكان الجزيرة الأصليين، لتنتج عنه في النهاية ثقافة هي خليط من الشرق والغرب استمرت لوقت طويل تنعم بالحياة الهائئة والسلام.

وسط هذه الأجواء انتعش الأرخبيل وبلغ شأناً كبيراً على كافة الصعد، حتى أضحت جزره مستقرّاً لكثير من الأسر الإسلامية التي راق لها المكان وسط طبيعة ساحرة وأجواء معتدلة، وخصوصاً من الأتراك والعرب الذين كانوا يخدمون ضمن الجيش التركي، فاستوطن هؤلاء مع عائلاتهم جزر الأرخبيل وكوَّنوا أجيالاً عمَّرت مدنه.

كان والد عروج وخير الدين، المقاتل السابق في فئة النخبة في الجيش التركي، أو كما يطلق عليه: الإنكشاري، قد اختار منذ سنوات خدمته في الجيش أن يستقر مع زوجته الأندلسية

في ربوع جزيرة ليسبوس عاصمة الأرخبيل وأنشأ أثناء سنوات تقاعده تجارة لبيع الأواني والمشغولات الخزفية والفخارية، وقد أنجب خلالها بالإضافة إلى عروج وخير الدين ابنين آخرين.

مع حلول عام ٨٩٨هـ كان الأب يقارب الستين من عمره، وبدأ يخامره شعور قوي بأن ابنه الأصغر خير الدين لا محالة تاركه كما فعل إخوته من قبله، وبخاصةٍ أنه يراه قد بلغ مبلغ الرجال بعد أن تخطى السابعة عشرة من عمره، وكثيراً ما سأل نفسه:

ـ ترى هل سيختار خير الدين البحر كعروج، أم الجيش كأخويه الآخرين؟

ذلك ما كان يسأله لنفسه وهو يطيل النظر إلى خير الدين ذي البنية المتوسطة الفارع الطول بملامحه الهادئة وشعره الأحمر المميز المسترسل على جبهته من تحت عمامته الصغيرة، وقد انهمك بتلوين إناء خزفي وتزيينه برهة من الزمن عاد بعدها إلى قراءة القرآن.

فجأة يطل عليهم أحد البحارة بجسده الضخم ولحيته الكثة ويلقي التحية..

ـ السلام عليكم يا أبا عروج..

(يرفع أبو عروج بصره ثم يبتسم)..

ـ آه، مَنْ؟ صاحبنا البحار.. حكيم الحلبي.. (وهو ينهض لمصافحته).. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. كيف حالك يا صديقي..

ـ بخير، الحمد لله على فضله ونعمه.

ـ وكيف هي رحلاتك وتجارتك؟ هل تربح من ورائها..؟.
ـ الحمد لله! ما دامت القناعة موجودة فكل رزق الله ربح.
ـ صدقت يا صاحبي.. والحمد له سبحانه والفضل والمنة..
ـ الحمد لله.. (يلتفت فيرى الفتى).
ـ من هذا الفتى؟ أهو خير الدين؟
ـ نعم إنه هو.. خير الدين! لقد كبر وأصبح شابّاً يافعاً.. (وينبه أبو عروج ابنه بنبرة قوية).
ـ ألا تنهض إلى عمك يا فتى لتسلم عليه.. ما بالك؟ (وينتفض خير الدين من مكانه ليدنو من حكيم فيحضنه ويسلم عليه بشدة.. ضاحكاً).
ـ لقد أصبحت شابّاً قويّاً أيها الفتى.. كم عمرك؟
ـ لقد بلغ السابعة عشرة منذ أيام قليلة.. وأنهى أيضاً حفظ القرآن الكريم كله..
ـ ما شاء الله ولا قوة إلا بالله.. إذن أصبح لزاماً على الشيخ أن يبحث لك عن عروس مناسبة.. أليس كذلك؟
يبتسم خجلاً وهو يردد..
ـ كل شيء بقدر الله تعالى يا سيدي..
يضحك..
ـ انظر إلى وجنتيه لقد احمرتا.. إنه يشعُّ بالخجل.. إياك يا فتى، فليس الخجل إلا للنساء أما الرجال فليس لهم إلا المجالدة والمغامرة..

يعقب الشيخ..
- أو البحر.
فيلتفت إليه صاحبه..
- أجل يا صاحبي.. البحر.. البحر.. فهل هناك أجمل وأوسع منه أو حتى أوحش منه. إنه الخصمُ الجميل المتوحش في الوقت نفسه، ويا ليتك ترافقني فتكتشف ذلك بنفسك..
- يكفيني أن يكون واحداً من عائلتي مغرم به.
- وهل مثل عروج؟ فتى البحر الذي لا يهاب أمواجه أو صروفه.. لكم أنا فخور به؟!!
- سامحك الله يا حكيم، لو لم تملأ رأسه بحكاياتك عن البحر ومغامراته حتى شغفته به حبّاً لكان..
يقاطعه..
- ويحك يا رجل! تقول هذا وأنت الجندي الإنكشاري الذي خاض المعارك ورفع راية الإسلام في أراضٍ كثيرة؟!!
- إنما هم كل ما أملك في هذه الدنيا ولا أريد لهم إلا الأفضل.
- وما أفضل من حياة البحر وركوبه والسعي وراء أسراره؟!!
- حقّاً؟ وما ترى تقول أسراره هذه الأيام أيها البحار العتيد؟!!..
يتغير وجهه وتنتشر فيه ملامح الحزن..
- أخبار لا تسر بالمرة يا صديقي.. إنها الأندلس مرة أخرى.. الجرح الذي لم يندمل بعد..

ـ صدقت والله؟ الجرح الغائر.. منذ استيلاء أولئك الكفار عليها قبل ثلاث سنوات ونحن لا يمر يوم إلا ونسمع الجديد عما يعانيه إخواننا المسلمون هناك..

ـ قاتلهم الله أولئك الإسبان، لم يرعوا إلّاً ولا ذمَّةً في المسلمين..

ـ لقد بلغني من البحارة أن تلك الماكرة مليكتهم إزابيللا اللعينة أصدرت مراسيم تحرم على المسلمين كل ما يمت إلى دينهم بصلة، أو حتى إلى أصولهم، بل حتى الملابس أوجبت عليهم تغييرها وارتداء الملابس الإسبانية بدلاً عنها..

ـ بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك يا أخي.. فقبل أن أصل إليكم مررنا بجزر البليار وهناك سمعنا ما هو أعجب..

ـ ماذا تعني؟

ـ لقد أنشأ الفجرة محاكم لمحاكمة كل مسلم لا يلتزم بهذه المراسيم، وأسموها محاكم التفتيش، يرأسها أسوأ خلق الله، بينهم رجل فاسق يقال له خمينيس راح يصدر أحكاماً بالقتل والتعذيب والحرق بحق كل من يضبط يمارس شعائر الإسلام، أو يتكلم العربية، أو حتى يلبس ملابس إسلامية.. شيء فظيع؟ فظيع ما يتناقله الناس هناك عما يحلُّ بإخواننا.. فهم يتفننون في تعذيب المسلمين..

ـ جاء في وصف طرق وأماكن التعذيب.. أنها عبارة عن غرف سوداء مظلمة ثبتت بجدرانها مسامير صدئة ناتئة تلصق بها الأجساد إلى الآلات، فتمزق اللحم تمزيقاً بواسطة دواليب

ضخمة ذات مسامير، وأخرى يقولون عنها إنها أكاليل من الحديد، تطوّق جباه المعذبين وتضيق على رؤوسهم حتى تخترقها؛ إلى الكلاليب ذات الرؤوس الحادة بالإضافة إلى سحب اللسان من أصله؛ وغيرها الكثير مما يرعب وصفه.

بدا الضيف متأثراً وقد اجتمع حولهما عدد من الناس يستمعون..

ـ قاتلهم الله! أي نوع من البشر هؤلاء؟!.. نسوا أم تناسوا ما فعله الإسلام بأرضهم من عمران؟! ونسوا سماحة أبنائه معهم رغم حكمه لهم طوال ثمانية قرون..

ـ هذا إن كانوا بشراً أصلاً.. إنهم مجموعة من الوحوش لا تعرف قلوبها الرحمة.

* * *

في عرض البحر كانت سفينة عروج في طريقها إلى إحدى المدن الساحلية الممتدة على طول الساحل الشمالي لأفريقيا..

وفي داخل قمرته الخاصة جلس عروج يراجع بعض الخرائط مع بعض معاونيه.. طرغود وصالح وأيدين ريس.. قال صالح:

ـ الإسبان في هذه المنطقة لا يملكون من القوة البحرية أو السفن الشيء الكثير، اللهم إلا عدداً قليلاً ما بين عشر سفن إلى خمس عشرة سفينة يتحركون بها لنقل المؤن والعتاد؛ وفي أحيان كثيرة تستخدم للتجارة ما بين شواطئ الأندلس عامة، بدءاً من برشلونة في أقصى الشمال الشرقي، وانتهاء بسبتة على سواحل المغرب.

عقَّب عروج:

ـ وما مدى توغلهم في المياه؟ أعني ما المسافة التي يتحركون بها بعيداً عن قواعدهم؟

ـ بالنسبة لقواعدهم في برشلونة وطركونة وأورلية ليس كثيراً، بل إنهم لا يجرؤون على الابتعاد أكثر من خمسة أميال ثم يعودون إلى قواعدهم، أما في مرسية ومالقة وجبل طارق وسبتة فتحركهم يصل إلى حد التحرش بسفن التجارة المارة بموانئ الجزائر وتونس وليبيا والمغرب، بل وحتى الاعتداء على هذه الموانئ في بعض الأحيان بمساعدة القراصنة.

يرمقه باهتمام..

ـ وبالطبع كالعادة لا رد من حكام هذه الدول.

(يهز رأسه..)

ـ للأسف لا أحد منهم اهتم بإنشاء قوة بحرية قادرة على التصدي لمثل هذه التحرشات، والغريب في الأمر أن الإسبان يقومون بهذه التحرشات بمعدل سفينتين فقط في كل تحرش على طول الموانئ من المغرب وحتى ليبيا وجزيرة جربة..

قال طرغود:

ـ سفينتان فقط لإرهاب ساحل بهذا الطول ولا أحد يرد؟!!

ـ للأسف..

عقَّب صالح:

ـ إن الطرفين أضعف من أن يدخلا في مواجهة مباشرة، فلا الإسبان قادرون على ذلك لعدم وجود العدد الكافي من

السفن، ولا إمارات السواحل الإسلامية في الشمال الأفريقي لعدم وجود البحرية أصلاً..

ـ بالضبط..

يصمت برهة مفكراً ويعود ببصره إلى الخرائط يعاينها.. بادره أيدين:

ـ سيدي..

وهو منهمك بالتمعن في الخرائط..

ـ نعم..

ـ هل لي أن أسأل سؤالاً..؟

يلتفت إليه وباهتمام..

ـ اسأل..

ـ نتسائل أنا ورفاقي منذ وقت عن سبب اهتمامك بهذا الأمر! أعني السؤال والاستفسار عن موانئ الإسبان وحركة سفنهم وتحصيناتهم.. إلى غير ذلك، ولا نرى في الوقت ذاته أية علاقة لكل هذا بعملنا في التجارة، مما أدخلنا في حيرة وتساؤل عن السبب وراء اهتمامك بهذا الأمر على هذا النحو، وحين أمرتنا أمس بالهجوم على سفينة الإسبان زادت حيرتنا أكثر، فهل لك أن تطلعنا على ما يدور في ذهنك؟ ومعذرة إن كنت أتدخل فيما لا يعنينا أنا وزملائي ولكنه الاهتمام والحب لقائدنا.

يلتفت إلى الآخرين، ثم يبتسم ويربت على كتف أيدين..

ـ يا عزيزي لا تتعجل الأمور قبل وقتها، وعندما يحين الوقت المناسب أعدكم بأن تكونوا أول من يعرف، وحتى ذلك

الحين كل ما يمكنني الإفصاح عنه هو أننا مقبلون على أيام ستخلدنا في التاريخ؛ فكونوا على استعداد لها.. (يتبادلون النظرات باندهاش).. والآن أرجو أن تتركوني. أريد أن أختلي بنفسي بعض الوقت..

فينسحبون، وقبل أن يخرج أيدين يناديه:

- أيدين، أرجوك دعهم يُحضروا لي قائد السفينة الذي أسرناه لأتحدث معه..

ويهز أيدين رأسه استجابة ويلحق بالآخرين..

* * *

قبل ما يقارب العشرين عاماً، عندما قرر عروج أن ينفذ نصيحة والده المقاتل السابق، ويخوض غمار التجارة عبر البحر، لم يدر بخلده وهو الصغير سنّاً والحديث عهداً بالبحر ومسالكه، أن الأيام تخبئ له قدراً آخر غير التجارة وكسب المال.. قدراً يجعل منه لاعباً رئيساً بل سيداً لهذه الرقعة المائية الزرقاء ومتحكماً في حركة كل من على سطحها، ما سيخلد ذكراه بطلاً من أبطال البحرية الأفذاذ.. وها قد جاءت الأيام تحمل الأخبار السيئة عن الأندلس وأهلها وما يتعرضون له من الإسبان والأوروبيين، فتحركت في نفسه الأبيَّة الرغبة في نصرة إخوته في الإسلام والانتصار لما حاق بهم من العدو المشترك.. ولكن قبل أن يبدأ في تنفيذ ما يدور في ذهنه كان لا بد له من أن يعدَّ العدة للأمر ويحكم التفكير.

* * *

صعد طرغود وصالح إلى سطح السفينة وأخذا يتناقشان في هذا الأمر الذي سمعاه من قائدهم.

قال طرغود:

ـ أتظنه يعدُّ لتحويلنا إلى قراصنة لمهاجمة الموانئ الإسبانية؟

ـ كلا، لا أظن؛ فعروج ليس من هذا النوع من الرجال، فهو ذو أخلاق عالية ولا أظن أخلاقه تسمح له أن يعتدي على الآخرين..

عاد طرغود.. يسأل:

ـ إذاً كيف تفسر كل ما يفعله وآخرها تصدينا بالأمس لسفينة الإسبان؟!

ـ لا أعلم ولكن ما أنا متأكد منه أن الرجل يشغله شيء أكبر من المال وأهم.

ـ ماذا تعني..؟

ـ الأندلس.. سؤاله الدائم في كل ميناء ننزله عن المهاجرين والهاربين من أهلها، وعمن وصل منهم إلى موانئ الشمال الأفريقي يجعلني متأكداً أن الأمر الذي يفكر فيه ويخطط له، له علاقة بذلك..

ـ أتظنه ينوي غزو الأندلس؟!!

يكتفي صالح بالإيماء برأسه إشارة لعدم درايته..

* * *

وقف عروج مستغرقاً في النظر إلى خريطة عملاقة للأندلس علقت على أحد جدران مقصورته، وحين دخل عليه أحد

بحارته وهو يقود معه قائد سفينة الإسبان الأسير. . التفت إليه:

ـ شكراً يا حسن، بإمكانك أن تتركنا الآن. .

فيما يجلس الأسير على مقعد مقابل. . يعود عروج إلى متابعة النظر إلى الخريطة. .

ـ غريب أمر هذه الأرض. . تتنوع تضاريسها وتتلون حتى تكاد تجزم أن الفصول الأربعة لا تلتقي في مكان كما تلتقي في الأندلس. .

صمت واستدرك ملتفتاً إلى الأسير:

ـ أم أقول إسبانيا كما أسميتموها أيها القائد؟.

لا يجيبه. . فيتحرك عروج إلى مكتبه حيث يطل من نافذة صغيرة على سطح البحر. .

ـ ما اسمك أيها القائد؟!

ـ أليخاندرو غرينادا. .

ـ غرينادا. . غرينادا تعني بالعربية الغرناطي؟ أليس كذلك أيها القائد؟

ـ أجل.

ـ وأفهم من هذا أنك من أهل غرناطة العربية؟

ـ نعم.

يجلس على مقعده خلف المائدة. .

ـ قل لي أيها القائد، كيف كانت معاملة الأندلسيين لكم. . أعني عندما كانوا يحكمونكم؟ هل أساؤوا لكم يوماً؟

ـ لا أعرف تماماً، ولكن عن نفسي لم يسيؤوا لي أو لأي أحد ممن أعرف قط طوال أيام حياتي.

ـ غريب؟ نهائياً؟!!!!

ـ إطلاقاً..

ـ وكيف تصف معاملتهم لك أو لسواك من أهل غرناطة أو الأندلس عموماً؟

ـ الحق أن أياً منا لا يستطيع أن ينكر مدى لطفهم وعدالتهم واهتمامهم بأمر الجميع، بل إننا لم نشعر بأية تفرقة مع الأندلسيين.. بل العكس كانوا يعاملوننا في بعض الأحيان أحسن مما يتعاملون هم بعضهم مع بعض.

ـ يا سبحان الله.. وهل يكون رد المعروف والإحسان بالنكران والأذى يا هذا؟!!

ـ معذرة أيها القائد؟ لم أفهم..

بغضب.. رد عروج..

ـ ويحك، ما الذي لم تفهمه حتى الآن..؟ أتجازي من أحسن إليك وأكرمك بأن تطارده بسفينتك لتقبض عليه وتقدمه للقتل والتعذيب، أو تجبره على تغيير دينه ومعتقده.. أتجازيه بالخوف والرعب والتهجير، وهو من أمنك وجعلك حرّاً ولم يسئ إليك قط مع أنه كان قادراً على ذلك.. (تبدو الدهشة على وجه الأسير وكأنه لأول مرة يسمع هذا الكلام).. أي عقول تحملون في رؤوسكم.. أهكذا يكون جزاء الإسلام وأهله بعد أن دالت لكم الأيام عليهم؟.. أجبني! ما لك

تصمت هكذا؟.. (ويصر الأسير على الصمت وطأطأ بصره خجلاً من الحقيقة المرعبة التي فاجأه بها عروج).. والله العظيم لولا أني أدين بهذا الدين لما كفاني أن أعاقبكم بالموت.

ويسود الصمت المكان.. حتى يقطعه طرق على الباب، فيأذن للطارق فإذا به حسن...

ـ معذرة سيدي ولكننا نقترب من الجزائر..

ـ حسناً.. خذ الأسير وأعده إلى مكانه مع بقية رجاله..

(ويتقدم منه حسن ليرافقه، وقبل الخروج يناديه).. أيها الغرناطي.. (يلتفت إليه).. لا تقلق لن نبيعك عبداً للنخاسين وبالتأكيد لن نقتلك كما فعلتم مع إخواننا لديكم بل سنعمل على إعادتك إلى بلادك في أسرع وقت ممكن وهذا يشمل من معك أيضاً.

ويشير إلى حسن بمواصلة الخروج..

* * *

على ربوة خضراء تطل على شاطئ البحر اضطجع خير الدين مستمتعاً بالنسمات العليلة الرقيقة التي تهب عليه فيما يداعب ذيل سنجاب أرضي جثا على رأسه يحاول أن يفتح جوزة، وبدا اثنان من أصدقائه معه في الجلسة نفسها.. فيما صفحة البحر الزرقاء الهادئة تداعبها أمواج خفيفة..بادره الأول..

ـ خير.. هل جربت الإبحار من قبل؟

ـ كلا .

ـ ولا مرة؟

ـ أبداً . .

سأله الثاني . .

ـ أليس هذا غريباً؟!!

ـ وما الغريب فيه؟

يعتدل الأول على مرفقيه ويلتفت إليه قائلاً :

ـ شقيقك بحار ووالدك جندي سابق قاتل في جزر عدة وتنقل بالسفن كثيراً وأنت لم تدخل البحر ولا مرة من قبل؟ ألا تجد في ذلك غرابة؟

التفت إليه . .

ـ وما الغرابة؟

غمغم الثاني . .

ـ يبدو أنه لا يحب البحر . .

يضحك . . الأول . .

ـ أو ربما يخاف منه . .

يتوقف عن التلاعب بذيل السنجاب ثم يعتدل منتفضاً ما تسبب بإسقاط السنجاب أرضاً . . ينظر إليهما بعينين غاضبتين ثم يقول :

ـ أنا لا أخاف إلا الله . . (تتغير ملامح الاثنين إلى الجد فيما يلتفت هو إلى صفحة البحر الزرقاء) أما البحر فأنا أكاد أتحرق شوقاً لركوبه، ولطالما حلمت أني أصارع أمواجه أو

أجوب جزره الغريبة المليئة بالكنوز والأشياء الغريبة العجيبة، وكم من مرة تخيلتني قائداً لسفينة تشق عبابه كعروج تماماً.. (يلتفت إليهما).. ولعلمكما فقد سألت أخي أكثر من مرة أن يصحبني معه في رحلاته التجارية ولكن..

يعتدل جالساً.. الأول..

- ولكن؟!!

يعود بناظريه إلى البحر..

- كان هو وأبي يؤخران هذا الأمر إلى حين إنهائي حفظ القرآن الكريم.

- وها أنت قد أنهيت حفظه الآن.. وبتفوق.. فهل سيسمحان لك؟

يعود إلى النظر إليهما صامتاً، ثم يعود بنظره إلى البحر ويكتفي بالابتسام..

يدرك الفتى الصغير رغم حداثة سنه أن لكل شيء أواناً ووقتاً، ولا بد أن حلمه سيتحقق يوماً.. هو يشعر بذلك ولعله يشعر به اليوم أقوى من أي وقت مضى، لكن متى تحديداً؟ هذا ما يعجز عنه تفكيره.. فلزم الصمت واكتفى بالتحديق بصاحبيه لعلهما يصلان إلى الإجابة من تلقاء نفسيهما.

* * *

مجموعة من الأطفال تتراكض نحو الميناء فيما يسارع عدد من الحمالين إلى الاستعداد للمشاركة في تفريغ حمولة السفينة التي أطلت عن بعد في طريقها إلى ميناء ليسبوس.. ولم تكن

السفينة سوى مركب عروج الذي وقف متأملاً عن بعد مرفأ جزيرته حيث والده وشقيقه خير الدين حين بوغت من خلفه بصوت..

ـ القائد عروج..

يلتفت فإذا به علي، ذلك الفتى الذي فرَّ من الأندلس على متن القارب الذي أنقذه عروج وبجواره صاحبه.. ابتسم..

ـ نعم..

ـ معذرة يا سيدي ولكني أردتك في حاجة..

ـ حاجة؟

ـ أجل.

ـ وما هي؟

ـ لقد قال لي البحارة إن هذه الجزيرة هي آخر محطة للسفينة حيث ستستقر فيها لمدة أسبوع على الأقل قبل أن تعاودوا التحرك مرة ثانية، وأنا كما تعرف قد خرجت من الأندلس هارباً من دون أن تكون لي وجهة معلومة و...

يقاطعه.. عروج..

ـ ما الذي تجيدانه من عمل؟ لقد قيل لي إنكما الوحيدان اللذان لم تنزلا إلى شواطئ الجزائر من إخواننا الأندلسيين، وإنكما فضلتما البقاء معنا إلى المحطة التالية، وأستطيع أن أخمن أن ما منعكما من النزول هو عدم امتلاككما المال ولا الزاد، ويبدو لي أنكما لا تعرفان شيئاً عن الوجهة التي تريدان التوجه إليها في المغرب، هذا إن كنتما تعرفان عدوة المغرب

أصلاً.. على أي حال حتى لا أطيل فأنا لا أحب أن أصطحب عاطلين أو أشخاصاً بلا فائدة، لذا فقد قررت أن أستأجركما للعمل معي على متن المركب، فهلا أخبرتماني الآن ما الذي كان يعمله كل منكما في الأندلس حتى أعرف كيف أستفيد منكما؟

ـ أنا كنت أعمل صانع سيوف، وصاحبي كان خرازاً..

همهم.. ثم أردف..

ـ صانع سيوف وخراز.. دعنا ننظر في الأمر.. (يهمس في نفسه مفكراً).. صانع سيوف وخراز.. (همهمة).. حسناً.. الرسول ﷺ كان راعياً للغنم في بداية حياته ولم يزده ذلك إلا شرفاً ورفعة.. ويعلمنا أن العمل مهما صغر إنما هو جهاد في سبيل الله تعالى ما دام شريفاً، واليد العليا خير من اليد السفلى.. لذا فستعملان مساعدين للطباخ مسعود على متن المركب مؤقتاً، وعندما تثبتا نجاحاً وتفوُّقاً سيكون لنا حديث آخر إن شاء الله..، وستكون أجرة كل منكما خمسة دراهم في الأسبوع.. موافقان؟

قال الثاني..

ـ ما كنا لنحلم بأكثر من ذلك يا سيدي.. بورك فيك وجزاك الله عنا خيراً..

ـ حسناً إذاً.. (يمد يده إلى جيبه ويخرج دراهم).. وهذه أجرة الأسبوع الأول مقدماً لتدبرا لكما مسكناً وطعاماً طوال الأسبوع الذي سنقضيه هنا.. ولا تنسيا.. في مثل هذه الساعة

واليوم من الأسبوع المقبل عليكما أن تكونا أمامي على المركب للإبحار.

الاثنان معاً:

- إن شاء الله يا سيدي؟ إن شاء الله.

إكمالاً لمهمة الإعداد لتنفيذ ما في رأسه على طريق نصرة إخوانه المسلمين الأندلسيين، كان لزاماً عليه أن يختار من الرجال من يكون لديه الاستعداد الكافي واللازم لتحمل أعباء المشروع، وبالتأكيد لن يجد أفضل ممن أنقذهم من الأندلسيين.. فهم أولاً وأخيراً يحملون جميع المقومات لذلك ولن يترددوا لحظة واحدة في الاستجابة لمطلبه.

كان اهتمامه الأول منصبّاً على إنقاذ أكبر عدد من الهاربين والمهاجرين لشعوره بأن هؤلاء، وليس غيرهم، من سيعتمد عليه في تنفيذ ما يدور في رأسه منذ سقوط الأندلس؛ فانكسارهم وما يعتمل في نفوسهم من غضب وحنق مما عاملهم به الإسبان يجعلهم أكثر إحساساً واستعداداً لتقبل الفكرة، بل ومساعدته حين يطلبهم. ذلك ما يستشعره مع كل عملية إنقاذ أو تعرض بحرية.. لقد أجاد قراءة نظراتهم وتطلعاتهم في قيادة قوية شجاعة تلملم شملهم وتعيد إليهم مجدهم.. قد يكون الحلم أكبر من الحقيقة ولكن لا بأس، فكم هي الأحلام التي أصرَّ عليها أصحابها حتى حولوها إلى حقيقة ساطعة؛ وأول الطريق الصعب يبدأ بخطوة، ولابد أن تكون خطوة محكمة لا مجال للزلل فيها..

* * *

في دكان الخزفيات تقدم عروج يقبِّل يد والده..

ـ كيف حالك يا أبي؟

ـ بخير والحمد لله؟ وكيف حالك أنت؟

ـ الحمد لله، لقد أنعم الله علينا في هذه الرحلة وكسبنا في تجارتنا ربحاً وفيراً.

ـ الحمد لله والشكر والمنة.. وكيف حال رجالك؟ هل صادفتم أية متاعب في رحلاتكم؟

وقبل أن ينطق يفاجأ الاثنان بمن يدخل عليهما.. إنه خير الدين..

ـ السلام عليكم..

يلتفت عروج مبتسماً..

ـ أخي الصغير خير.. (ينهض إليه).. تعال لأضمك إلي، فقد اشتقت إليك وإلى مشاكساتك أيها الصغير..

ـ لم أعد صغيراً يا عروج؟ أنا الآن في السابعة عشرة.

يضحك..

ـ صدقت؟ معك حق؟ إذن كيف أنت أيها الرجل..

ـ الحمد لله..

ـ وكيف هي والدتنا..

بادره والده..

ـ بخير وعلى أحرٍّ من الجمر لرؤيتك..

ـ وأنا أيضاً والله يا أبي..

ـ إذن ما الذي ننتظره.. هيا بنا إلى المنزل، فقد أزف وقت الغداء وستكون مناسبة سارة لوالدتك.. هيا.

❊ ❊ ❊

في المنزل الصغير اجتمعت العائلة حول مائدة الطعام..والدته تزيد له من الطعام..

ـ كُلْ يا فتى كُلْ؟ تبدو شاحباً ضعيفاً..

ـ يكفي يا أمي يكفي فأكاد أتخم..

بادر والده..

ـ كفى يا امرأة! هل كنت تظنينه في مجاعة منذ تركك..

ـ وهل تسمي ما يأكلونه على المركب طعاماً يا رجل..؟

ـ ماذا يكون إذن..؟

ـ أي شيء إلا الطعام.. (تلتفت إليه)..

ـ أليس كذلك يا ولد..؟

ـ وهل يعلو على طعامك طعام يا سيدتي..

ـ أرأيت؟ .

ـ حسناً إذن! كُلْ ولتنتفخ كما انتفخ أبوك..

يضحكون..

❊ ❊ ❊

في جلسة حميمة في إحدى زوايا المنزل، جلس الابنان في حضرة والدهما الشيخ يحتسون الشاي.. همهم الوالد..

ـ وما هي أخبار البحر؟

ـ كثيرة ومحزنة في الوقت نفسه.

عاد ليسأله:

ـ هل بلغك شيء عن الأندلس؟

ـ الكثير؟ سوى أنها تبقى أخباراً ليس إلا..

سأل خير الدين..

ـ لقد سمعت من بعض البحارة بالأمس أن الإسبان يعذِّبون المسلمين هناك..

ـ ذلك حقيقي، بل إنهم يجبرون بعضهم على التنصر أيضاً..

ـ هؤلاء الأوغاد؟ ألا يجب أن نفعل شيئاً لمساعدة إخواننا؟!!

عاد والده يعقِّب:

ـ وماذا بيدنا أن نصنع يا ولدي؟ فجلُّ الأمة ضعيف متناحر لا يقوى على الدفاع عن نفسه، ناهيك عن انشغالهم بقتال بعضهم بعضاً..

أيده عروج:

ـ صدقت والله يا والدي.. فحتى المسلمين على سواحل أفريقيا التي كانت أقرب المساعدين للأندلس لم تعد كذلك، فالخلافات لا تزال تدب بين الحفصيين والزيانيين والمرينيين..وغيرهم من ملوك المغرب..

خير الدين:

ـ وماذا عن بني عثمان؟ أسمع أنهم باتوا هم الأقوى الآن؟

ـ بلغتنا أخبار بذلك بل وأكثر، فقد سمعت أنهم يعدُّون لفتح مصر وسوريا وغيرها من البلدان الإسلامية في المشرق لتوحيدها تحت سلطتهم..

ـ ألا يستطيعون نجدة الأندلسيين. . ؟

ـ لا أظن! فقوتهم بريَّة ولم أسمع أنهم يمتلكون أسطولاً بحرياً، وما داموا لا يملكون قوة بحريَّة فلن يستطيعوا. . وعلى أي حال لا أظنهم سيملكونها قبل وقت طويل.

الوالد:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. .

سأله خير الدين:

ـ وماذا عن وعدك لي أيها البحار؟

التفت إليه. . عروج. .

ـ أي وعد تعني؟

ـ أن تصحبني معك في رحلاتك.

يطيل الصمت وهو يرمي بنظراته إلى والده الشيخ الصامت. . ثم باهتمام. . عقَّب:

ـ أعلم أني وعدتك حين تنتهي من حفظ كتاب الله بأن أصطحبك، ولكن دعنا نفكر في الأمر بروية يا عزيزي. فماذا عن والدك ووالدتك؟ إن خرجنا نحن الاثنان فمن لهما يرعى شيخوختهما ويقوم بأمرهما؟

يحاول والده أن يداري استياءه وانزعاجه. .

ـ لا تفكرا في ذلك؟ فلا زلنا ولله الحمد أنا ووالدتكما بوافر صحتنا وقدرتنا على خدمة أنفسنا. . دعه يذهب، اصحبه وحقق له رغبته.

ـ ولكن يا أبي إنه لا يـ. .

ـ يقاطعه بقوة..

ـ عروج، افعل ما آمرك به.. (يلتفت إلى خير مبتسماً).. لدي إحساس بأن جمعكما سيكون له شأن كبير في البحر.. (يعود إلى عروج).. واحرص على أن تعلِّم شقيقك كل شيء تعلمه عن البحر والإبحار! لا تبخل عليه بشيء، وبالمقابل كن له أكثر من أخ، وإياكما والفرقة، فما يضيع المرء أكثر من تضييعه لرحمه.. كما قال ﷺ: الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله: (ثم يلتفت إلى خير).. وأنت أيها الغلام؟ كن مطيعاً لأخيك واستمع لكل ما يقوله لك، وإن كنت تظن أنه الهلاك، فهو أعلم منك وأكثر دراية، وفوق كل ذي علم عليم..

يدنو خير الدين من والده:

ـ أعدك بأن أكون له أكثر طوعاً من بنانه، ولن تسمع عنا إن شاء الله إلا ما يرضيك.. (يقبِّل يد والده ويشكره على سماحه له بمرافقة أخيه)..

فيبتسم الوالد وهو يمسح على رأس ولده ذي الشعر الأحمر..

ـ أرجو من الله تعالى أن يبارك بكما ولكما، وأن يجعلكما في خدمة دينه والمسلمين؟ اللهم آمين.

ويحل صمت الوداع على الجميع

* * *

في عرض البحر تمخر سفينة عروج الأمواج بهدوء ويسر فيما تناثر العمال والبحارة على أرجائها ومن بينهم الفتيان علي وإسماعيل، حيث انهمكا في تنظيف بعض أواني الطبخ باهتمام، ويمر بجوارهما القائد عروج فيبتسمان له ويواصل هو طريقه إلى مقدمة المركب.. التفت علي إلى صاحبه وسأله:

ـ أتظنه سيبقينا نخدم في المطبخ طوال حياتنا؟

ـ ماذا تعني؟!!

ـ أعني! هل تروقك هذه المهنة؟ هل خلقت وهربت من الأندلس لتعمل منظِّفاً للأواني؟

ـ ويحك يا فتى! وهل في العمل ما يشين؟

ـ افهمني يا صديقي؟ إنما أعني أين الطموح؟ أين الغاية العليا.. أهذا ما يطمح كل منا إليه؟!!

ـ كلا بالطبع، ولكن لكل شيء أوان ووقت، والصبر خير معين على تحقيق الأهداف..

يصمتان برهة..

ـ نعم، صدقت.. الصبر. سأصبر وسأكشف للأيام ما تخبئ لها هذه النفس.

* * *

[٢]
من التجارة إلى الجهاد

في المقدمة وقف خير الدين يتأمل صفحة البحر التي انداحت أمامه كصحراء زرقاء لا نهاية لأفقها الذي امتزج مع خط السماء.. همس في نفسه..

ـ حسناً أيها الوحش، ها أنا وأنت وجهاً لوجه.. ترى هل هناك ما يجب أن تخبرني به قبل أن نبدأ.. (يصغي مستمعاً لهدير الأمواج وتلاطمها على مقدمة السفينة.. ثم يبتسم).. لا تدري، أما أنا فأعلم أني لن أسمح لك بأن تغلبني.. سأصارعك ولن تهزمني بإذن الله.

يقطع عليه الاسترسال صوت شقيقه من خلفه.

ـ تريد أن تتعرف عليه.. (يلتفت خير الدين إليه فيما يسترسل عروج وهو يرافقه النظر).. حاول، رغم أنه لن يمنحك صداقته بسهولة..

ـ أتظن ذلك؟

ـ المهم ما تظن أنت، أتراك قادراً على اكتساب صحبته التي طالما حلمت بها؟

يعود ببصره إلى البحر..

- بالعكس؟ أشعر وكأن بيني وبينه صداقة قديمة ووثيقة..

نظر إليه أخوه صامتاً لبرهة يتأمل في قوله ثم سرعانَ ما ابتسم وعاد ينظر إلى البحر وقال:

- ربما، لأنك تلقاه وجهاً لوجه لأول مرة!!

- ربما.. (يلتفت إليه).. وربما لأن بيننا حكاية قد بدأت.

يطيل شقيقه النظر إليه متمعناً بقوله صامتاً.. ثم يعود إلى التطلع في البحر مرة أخرى.

* * *

وتمر الأيام سريعة على الفتى مصاحباً أخاه على متن السفينة، وهي ترسو في مرافئ عدة على طول الساحل الشمالي من أفريقية، تحمل بضائع وتفرغ غيرها، ثم إلى سواحل البحر الأحمر من اليمن إلى الجزيرة ثم إلى مصر وغيرها؛ وفي الوقت نفسه تتدخل لانتشال عدَّة هاربين من الأندلس، ليعايش بنفسه ويسمع من الناجين كارثة الأندلس.. حتى إذا ما قاربت السنة على الانتهاء، وبالتحديد في بداية ٨٩٩هـ يجمع القبطان عروج بحارته على متن السفينة لأمر هام.. وفيما اصطف الجميع بانتظام انتظاراً لظهور القائد عروج تعالت الهمسات بين البحارة عن سبب هذا الاجتماع..

همس الأول سائلاً من بقربه، وهو ضخم الجسم، مفتول العضلات، أصلع الرأس، اسمه سالم:

- أتعلم لِمَ يجمعنا؟!!

- الله أعلم..

ـ سمعت أنه يريد أن يتقاعد ويسلم أمور السفينة لشقيقه خير الدين. .

ـ يتقاعد؟!!

ـ ولكن شقيقه لا يزال صغيراً على أمور البحر، ناهيك عن قيادة السفينة. . !

في الصفوف الخلفية، وقف الصديقان إسماعيل وعلي حائرين كغيرهم، قال علي:

ـ أتساءل، ما هو يا ترى هذا الأمر المهم الذي يجمعنا القائد من أجله؟!!. . لقد سمعت بعضهم يتهامس بأمور تقاعد وغيرها. . على أي حال، هذا الأمر ليس مهمّاً ما دام العمل سيستمر. . ما رأيك أنت؟

صامتاً يطيل النظر إلى صاحبه ثم يعود بنظره إلى المقدمة. .

ـ لنأمل أن يكون خيراً. . تفاءلوا بالخير تجدوه، كما قال الرسول ﷺ. .

* * *

ولم تمر سوى لحظات حتى يعلن صالح، أحد مساعدي عروج، النداء. .

ـ انتباه. .

فيتحوَّل الجميع بأبصارهم إلى المنصة حيث يظهر القائد عروج وبرفقته كل من شقيقه خيرالدين ومساعديه الآخرين أيدين وطرغود. . وقف منتصباً خلف المنصة ثم استعد وتطلع في الوجوه السمراء المتطلعة إليه. .

ـ السلام عليكم.. (يرد الجميع التحية..).. إخواني، قيل في الأثر: إن الأمور بخواتيمها، وليس أجمل من أن يختم المرء حياته بعمل صالح يرضي فيه ربَّه جل وعلا أولاً، فيقربه من الفوز بجائزته التي وعدها الله كل مسلم ألا وهي الجنة؟ ووالله ما لها من مثل أو شبيه.. فهي التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. هذا وصفها في قول نبيِّكم ﷺ، ثم يكون في هذا العمل صالح المسلمين ورفعة شأنهم واجتماع كلمتهم، فيبقي له في هذه الحياة ذكراً يتناقله الناس بعد أن ينقضي أجله ويندثر أثره.. والأعمال الصالحة كثيرة ولكنها كالجواهر والذهب، فما خف منها فثمين، وما ثقل منها فنفيس غالٍ لا يقدر بثمن، وكذا سلعة الله تعالى، ووالله إنها لغالية! إنها لغالية.. وقد محصت في أجلِّ الأعمال وأعظمها قدراً وأكثرها قرباً إلى الله تعالى فوجدته الجهاد.. نعم الجهاد! ففيه رفعة الأمة وعلو شأنها وهيبتها بين أعدائها؛ ووالله ما ترك قوم الجهاد إلا ذلُّوا، وهذا ما حدث مع إخواننا في الأندلس، وكلكم يعرف القصة ولا حاجة بي إلى سردها.. ولذا فإني أجمعكم اليوم لأنهي تساؤلاتكم التي ما برحت تساور العديد منكم عن السبب الحقيقي من وراء تخلينا في بعض الرحلات عن عملنا الرئيسي كبحارة لسفينة تجارة، والتحول في كثير من الأحيان إلى سفينة حرب وقتال، حين نتدخل لإنقاذ من نستطيع من إخواننا الأندلسيين الذين يفرون من جحيم الكفار الإسبان.. أجمعكم اليوم لأعلن فيكم أنني،

وبعد التوكل على الله تعالى ومشاورة الصحب وذوي الثقة من أهل الرأي، قررت أن نترك التجارة ونتحول إلى الجهاد.. أعلن فيكم أن سفينة عروج ابتداءً من الأسبوع القادم بإذن الله تعالى ستبدأ عملها الحقيقي.. سفينة حرب وقتال تطارد سفن الإسبان والنصارى وكل من يدخل المياه الإسلامية، ردّاً على ما نكب به إخواننا في الأندلس، وإني إذ أعلن لكم ذلك فإنما أخيِّركم، فإنَّا لا نجبر أحداً على مصاحبتنا فيما عزمنا عليه بإذن الله تعالى، فمن أراد أن يشاركنا العمل فله ما لنا وعليه ما علينا وما عند الله تعالى أكبر وأكثر، وحصَّة جهاده كما أقرها الشرع والدين، ومن أراد أن يفارقنا فها نحن نقترب من الجزائر ويمكنه النزول في الميناء وله منا الشكر ووافر التقدير على كل ما سلف منه، وسنذكره أخاً وصديقاً.. فما هو قولكم؟

يصمتون برهة متبادلين النظرات، فيما تهامس عدد منهم فيما بينهم، ولكن سرعان ما فوجئ الجميع وكذلك عروج ومن معه بمن يرفع يده مهللاً.

- الله أكبر.. الله أكبر.. بل كلنا معك يا عروج.. الله أكبر..

- يفاجأ الجميع بصياح علي ما أدهشهم فصمتوا، ثم ما لبث إسماعيل أن رفع يدَه مهللاً مكبراً مسانداً، وتبعه آخر وآخر حتى راح الجميع بلا استثناء يكبرون ويتنادون باستجابتهم للدعوة.. ما أشاع جوّاً من البهجة والفرحة لدى الجميع..

* * *

وبالفعل تبدأ السفينة وبحارتها المهمة الجديدة لهم، ألا وهي التعرض لسفن الإسبان على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط أو تلك التي تنطلق إلى وسطه، فيستولون على ما فيها من بضائع وحاجيات ويأسرون من يأسرون ويقتلون من يقتلون..

* * *

قبالة سواحل مدينة مرسية، منتصف عام ٨٩٩هـ.. وفيما الريح تملأ الأشرعة القماشية دافعة السفينة الإسبانية في عرض البحر يلمح الناظور من فوق أعلى صاريتها على بعد من سفينته سفينة مجهولة، وما أن دقق حتى فوجئ بعلمها يحمل راية خضراء كتب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله».. فنادى بأعلى صوته..

ـ المسلمون.. المسلمون..

يعم الهرج والمرج المركب ومن على متنه، ويسرع الجميع هلعين مرعوبين فيتطلعون بأعين قلقة وقد توقف معظمهم عن العمل.. بينما يسارع قائد المركب الإسباني وثلة من مساعديه بينهم أحد القساوسة إلى المقدمة يراقبون بالمنظار فيفاجأ القائد..

ـ سحقاً؟ إنها سفينة إسلامية..

بادر المساعد الأول..

ـ أهي...؟

ـ لا أعلم ولكنها تحمل راية إسلامية..

بادر المساعد الثاني، وقد بدا كبيراً في السن..

ـ القراصنة لا يرفعون رايات..

يلتفت إلى مساعده الثاني.. سأل القائد:

ـ أليس بإمكاننا تجنبها؟

ـ لقد فات الأوان؟ الريح تدفعنا نحوها بسرعة شديدة وحتى لو استدرنا فسيلحقون بنا لا محالة..

ـ إذن ليس أمامنا إلا الاستعداد والحذر فقد تكون من القراصنة.. أعلن النفير للاستعداد لوضع القتال..

غمغم قسيس يقف بالجوار..

ـ ويحهم! إنها سفينة ملكية أوَيجرؤون؟!!!

ـ يبدو أنك لا تعرف البحر ورجاله أيها الأب المبجل..

* * *

يسرع المساعد الثاني بين جموع البحارة بالاستعداد للقتال وتجهيز الأسلحة فيما يصرخ برجاله..

ـ حاولوا الحفاظ على البضائع والموجودات! لا تدعوهم يصلون إليها وإن اضطركم ذلك إلى التضحية بحياتكم! هيا بسرعة تحركوا! بسرعة..

اثنان من البحارة يشهران سيفيهما ويتخذان موضعاً لهما..

ـ الوغد، البضائع أهم لديه من حياتنا!!

ـ وهل كنت تظن غير ذلك؟ أموالهم أهم من أرواحنا!

ـ أقسم إن كانت سفينة القراصنة المسلمين، فسأساعدهم في الحصول على ما يريدون منها نكاية بهذا الوغد ومن معه..

ـ لقد سمعت بأنهم هاجموا ثلاث سفن من قبل واستلبوها . .

ـ قد يكونون قراصنة إلا أنهم أرحم برجالهم ممن يقودوننا .

ويستمر صراخ المساعد . .

* * *

في الطرف الآخر كان عروج ورجاله يوجهون سفينتهم نحو السفينة الإسبانية . . ويعدون العدة لملاقاتها . . ورويداً رويداً بدأ البحارة الإسبان يتأكدون من أنها السفينة التي يهابون ملاقاتها وبخاصة بعد سماعهم التكبير الصادر عنها .

* * *

على متن السفينة الإسبانية تهامس البحارة فيما أعينهم ترقب بقلق اقتراب السفينة، ويرهبهم صوت التكبير الصادر عن بحارتها .

ـ إنها هي؟

ـ هي؟!!!

قال آخر . .

ـ القراصنة . .

ـ سحقاً! أي حظ سيئ هذا الذي قذف بي في هذا البحر . .

قال رابع . .

ـ لو أن قبطاننا ذكي بما فيه الكفاية لفضل الاستسلام . .

ـ أنستسلم لهم بلا قتال . . أنجبن؟!!

يلتفت إليه . .

- ويحك أيها الفتى؟ إنهم المسلمون وأنا أعرفهم جيداً، فالقتال بالنسبة إليهم لم يكن أكثر من نزهة حين كانوا يحكمون الأندلس، أما اليوم فهو أكثر من ذلك..

- ماذا تعني؟!!!

- يبدو أنك لم تسمع من قبل عما فعلوه بالسفن التي شاء لها حظها السيئ أن تقع بين أيديهم، لقد سمعت قصصاً مخيفة عما يفعلونه ببحارتها.

- وهل استحقوا لقبهم المخيف إلا بهذا.. (يلتفت إلى الرابع).. وحوش البحر؟

وتعود أبصارهم إلى السفينة التي راحت تقترب أكثر فأكثر فتتضح لهم صور بحارتها، فيما تشتدُّ أصوات تكبيراتهم..

* * *

ويلتصق هيكل السفينتين ليسارع البحارة المسلمون إلى السفينة الملكية فيلتحموا ببحارتها، وينشب قتال عنيف بين الجانبين تتطاير فيه الرؤوس وتتناثر الدماء ويسقط القتلى..

* * *

ويبدي علي وصاحبه وخير الدين وعروج شجاعة وبطولة لا نظير لها؛ الجميع استوحش في تلك اللحظات وأصبح مقاتلاً من الطراز الأول مستخدماً في ذلك ما وهبه الله تعالى من قوة وبأس، فقد تذكروا مصاب إخوتهم وآلامهم.. التعذيب وسوء المعاملة والقتل المجان الذي صبه عليهم الإسبان صبّاً.. أبدوا براعة كما تعوَّدوا في كل قتال.. استخدموا كل ما يمكن أن

يفاجئ الإسبان.. قفزوا؟ تعلقوا بالحبال؟ تأرجحوا في الهواء تشقلبوا كالقرود... ما أفزع عدوَّهم وكانوا عند ظنه حين أطلق عليهم لقب «وحوش البحر».. كانت شجاعة منقطعة النظير في القتال أدهشت الجميع.. وفي خضم العركة يلمح علي أحد الإسبان يحاول الغدر بخير الدين من خلف فصاح.. وهو يرسل بسيفه رمياً..

ـ انتبه..

يفاجأ خير الدين بالإسباني يسقط عليه جثة هامدة والسيف مستقر في ظهره.. فيما يتقدم منه علي لينتزعه..

ـ حاول أن تكون أكثر حذراً في المرة القادمة..

ويتركه عائداً إلى القتال فيما نظرات خير تتابعه...

* * *

وبعد أقل من ساعة كان كل شيء قد انتهى واستقرت الأوضاع على السفينتين، وأسر عروج وبحارته عدداً من طاقم السفينة الإسبانية بينهم الفتى والقسيس ومجموعة من البحارة، فيما تمَّ الاستيلاء على ما في السفينة من بضائع ومواد.. وعرض الأسرى على القائد عروج الذي بدا بقربه شقيقه خير الدين..

قال صالح، أحد معاوني عروج:

ـ هؤلاء كل من وجدناهم أو استسلموا لنا من بحارة السفينة..

يتأملهم برهة ثم يقول:

ـ من منكم قائد السفينة؟
ينبري أحد البحارة الأسرى..
ـ لا أحد، لقد قتل.
يلتفت إلى صالح..
ـ صالح، أرسل من يبحث عن جثته.
ـ أمرك، وماذا عنهم؟!!
يعود لتأملهم ثم يلمح القسيس..
ـ أنت، تبدو لي رجل دين، أليس كذلك؟
بخوف.. أجاب القسيس..
ـ أأأجل؟ يا سيدي..
ـ هل ستقتلونه؟
سأل أحد البحارة.. فيرميه عروج بنظرة ولا يكلمه.. ثم يتوجه إلى القسيس..
ـ ما اسمك أيها القسيس؟
ـ الأب ميخاندرا..
ـ حسناً.. (يلتفت إلى صالح).. أكرموا وفادة البقية وأطعموهم وأحسنوا إليهم، وعندما نصل إلى المدينة التالية بيعوهم كعبيد.
سأله صالح..
ـ والقسيس؟
ـ كلا، اتركه لي..

ويتحرك صالح دافعاً الأسرى أمامه لينفرد عروج وشقيقه بالقسيس. .

ـ قل لي أيها الأب! ما الذي تعرفه عن المسلمين؟

ـ قوم عاشرناهم وعاشرونا.

ـ وهل أساؤوا لكم أو لدينكم يوماً؟

ـ أشهد أنهم ما فعلوا إلا كل حسن وخير.

ـ ما رأيك إذاً فيما تفعلونه اليوم بمن بقي منهم؟

ـ ما رضينا به، إنما هي سطوة الحكم.

ـ حسناً إذاً، سأطلق سراحك وأعيدك إلى الأندلس على أن أحملك رسالة إلى مليككم «فرنانده» أو أيّاً كان اسمه، تبلغه فيها أن يكف هو ومن معه عن الإساءة إلى المسلمين وإلا فوالله الذي لا إله إلا هو لن أدع الإسبان أو أيّاً كانوا يبحرون في هذا البحر أبداً ما حييت؛ وأن ما حدث ويحدث حتى الآن ما هو إلا تسلية ولعب منا، وإن أردنا ما هو أكثر فسنفعل، وإنا نمهله شهراً لنسمع أنه قد أوقف تلك المحاكمات والمطاردات التي يلاحق بها إخواننا، فإن لم يفعل فسيفاجئه ردنا.

* * *

في قصر الحمراء، حيث استولى الإسبان على مقر الحكم العربي، كان فرنانديز مستغرقاً في قراءة رسالة عروج في جمع من مستشاريه وبحضور القسيس. . انتفض فجأة من مقعده وهو يرمي بالرسالة غاضباً. .

ـ الوغد، من يظننا. . أمثلنا يهدد؟!!. . ذلك المورسيكي

القذر؟ أقسم بالرب لأسيِّرن له أسطولاً يؤدبه كما أدبنا أسلافه في إسبانيا. . (يلتفت إلى القسيس). . قل لي أيها الأب. . لا بد أنهم قد أساؤوا لك ولرجالنا، أليس كذلك؟. . (يحاول القسيس الرد إلا أنه يقاطع). . نعم، نعم، أفهم، لا بد أنهم فعلوا ذلك؛ فأمثالهم لا يحترمون ديناً ولا يرعون ذمة لرجل دين مثلك، ولكن لا بأس؛ سيلقى منا الرد المناسب. . (يتحرك وسط القاعة الفخمة). . مكسيم. .

يدنو منه أحد الموجودين. .

ـ مولاي. .

ـ كم عدد سفن هؤلاء القراصنة؟

يلتفت إلى من حوله كالمحرج. .

ـ واحدة فقط يا مولاي. .

مندهشاً. .

ـ ماذا؟ سفينة واحدة؟!!!!

ـ أجل يا سيدي؟ سفينة واحدة. .

ـ ويحك أيها الوغد؟ سفينة واحدة وتفعل بإسبانيا وجميع مرافئ شرق وجنوب أوروبا كل هذا الفعل؟!!

ـ ليسوا هينين يا مولاي، فهم أذكياء، والعبرة ليست في العدد ولكن في الفعل وتحيُّن الفرصة للانقضاض.

يصمت برهة متطلعاً إليه ثم يتحرك عائداً إلى مقعده. .

ـ ماذا تعني؟

ـ لا تراهم في البحر دائماً، بل إنهم يرسون في أحد موانئ

الشمال الأفريقي منتظرين اللحظة المناسبة حين تبلغهم أخبار من عيونهم عن إحدى السفن الأوروبية التجارية، التي تكون قد خرجت محملة بالبضائع والمؤن وحيدة ومن دون حراسة، وفي اللحظة المناسبة التي يقررها قائدهم يفعلون فعلتهم بسرعة ثم يهربون قبل وصول النجدة إلى السفينة المنكوبة.

ـ إذاً، هم يتجنبون السفن العسكرية؟

ـ ليس دائماً.. فقد سبق لهم وهاجموا سفناً عسكرية وهزموها ولكنها تكون ضعيفة التسليح وقليلة الجنود.

ـ يستغلون نقاط الضعف.. (ينهض من مقعده ويتحرك إلى وسط القاعة).. حسناً.. (يلتفت إلى مكسيم).. سنرى كيف نرد عليهم؛ إليَّ بقائد بحريتنا..

* * *

في عرض البحر تشق سفينة عروج صفحة البحر الأبيض المتوسط وسط هدوء وسكون صامتين.. وعلى متنها استغرق الجميع في تأدية صلاة الظهر جماعة باستثناء عدد قليل وقفوا للحراسة أو لمتابعة شأن السفينة، أما الإمام فقد كان عروج.. بعد الانتهاء كان علي بجوار خير الدين.. تصافحا فشد خير على يد علي مبتسماً.. وسط دهشته..

ـ لم تسنح لي الفرصة أن أشكرك على صنيعك معي.

ـ أي صنيع؟!!

ـ المعركة.

ـ لا شكر على واجب.. ثم إننا في جانب واحد وعلينا أن نتكاتف.

ـ صدقت، وعلى أي حال سيسعدني أن نكون أصدقاء.. هذا إن رضيت.

ـ تشرفني صداقتك يا سيد خير الدين..

ـ من أي مدن الأندلس أنت يا علي

ـ غرناطة.. هل لك دراية بها أو زرتها من قبل؟

ـ للأسف لم تتح لي الفرصة إلا أني سمعت بها وبآخر معاركها مع الإسبان.. أيام ولّت..

ـ ألا تتطلع لعودتها.

ـ لأبذلن ما بقي من عمري من أجل ذلك.. (صمت خير الدين وأطال التفرس بوجهه..) فعاد علي قائلاً: بإذنك الآن فلدي عمل يجب القيام به..

يرافقه في النهوض..

ـ ما هو عملك؟

ـ في المطبخ، فأنا أساعد الطباخ.

ـ لا يبدو أن هذا هو موقعك الحقيقي!!

مبتسماً..

ـ الحياة لاتهبنا كل ما نريد يا سيدي وعلى المرء أن يكون صبوراً.

ـ صدقت.

ـ والآن اسمح لي؟ فعلي الإسراع إلى عملي قبل أن يستفقدني صاحبي.. السلام عليكم.

ويرد عليه خير الدين التحية وهو يراقبه بتمعن.

كشقيقه تماماً أصبح يملك حسّاً في معرفة مع من يتعامل.. كان ينوي التعرف على علي بعد انتهاء المعركة إلا أنه آثر الانتظار والمراقبة لعل حدسه تجاه من أنقذه في ذلك الموقف لم يكن حقيقيّاً، ولكن بعد أن تأكد من صواب حدسه قرر أن يتقدم منه بنفسه.. وكما يقولون معرفة الرجال كنوز، وأي كنوز يبحث عنها.. كنوز تعينه على ما هو قادم عليه مع شقيقه أو بدونه.

* * *

مع حلول الظلام كان عروج مجتمعاً بمساعديه الثلاثة.. صالح وأيدين وطرغود بالإضافة إلى شقيقه خير الدين يتباحثون في أمر مهم.. قال طرغود:

ـ رأيي أن تكون جربة.

ـ ولم جربة؟

ـ لعدة أسباب! أولها لقربها من ساحل تونس حيث سلطانها الحفصي محمد بن الحسن الذي أستطيع أن أؤكد أنه بات على استعداد لاستضافتنا في أرضه، ليضمنا إلى قوته المقاتلة، أو على الأقل ليضمن ولاءنا له زيادة في بسط نفوذه. وثانياً لتوسط الجزيرة المسافة بين أفريقية وساحل الأندلس ما سيوفر علينا وقتاً إذا ما أردنا مهاجمة أية سفينة تنطلق من الأندلس،

أو من أي مرفأ من مرافئ بلاد الإفرنج. وثالثها أن الناس في جربة وغيرها من بلاد الساحل الأفريقي قد بلغتهم أخبار انتصاراتنا فراحوا يتطلعون إلينا على أننا الوجه الحقيقي للإسلام، وليس الذين يجلسون على عروشهم، ما زاد في إعجابهم بنا. وأخيراً فجربة تعدُّ قاعدة لكل الموريسكيين الأندلسيين الذين فروا من جبروت الإسبان وطغيانهم، فهي بالتالي ستكون قاعدة لنا للتزود بما نحتاجه من مدد وقوة سواء بالرجال أو بالمؤن اللازمة.

عقَّب عروج:

ـ حسناً، يبدو رأياً سليماً.. (يلتفت إلى مساعديه).. وما رأي الآخرين؟.. (لا أحد يجيب وتبدو الموافقه).. حسناً إذاً، على بركة الله.. ستتجه غداً إن شاء الله بنفسك يا صالح إلى السلطان الحفصي لعرض الأمر عليه. أما أنت يا طرغود فأريدك أن تعدَّ نفسك للسفر غداً إلى الأندلس لتتصيد لنا أخبارهم، فنفسي تحدثني أنهم يعدون لنا أمراً بعد ما فعلناه بسفينتهم الملكية.

ـ هل أذهب وحيداً؟

ـ كلا، بل سيصحبك شقيقنا خير الدين.. (وهو يربت على كتف شقيقه).. في هذه المهمة وستكون أول مهمة له.. ما رأيك أيها الفتى؟

يتدخل خير الدين..

ـ على بركة الله.. ولكن هل لنا أن نصطحب آخر؟

طرغود:

ـ آخر؟ أتظننا ذاهبين في نزهة؟

ـ بل إلى أرض العدو، ولكن من الحكمة أن نصحب من يعرفها أكثر مني ومنك.

ـ من تعني؟!!

سأل عروج.. فأجاب خير الدين..

ـ علي الأندلسي..

تساءل طرغود..

ـ فتى المطبخ؟!!!

ـ لو رأيته كيف كان يقاتل في المعركة الأخيرة ما تهكمت عليه بهذا الوصف..

ـ صدقت والله.. وإني لأشهد بأنه على حداثة سنه مقاتل شرس.. ليكن.. وعلى أي حال صدق خير الدين فهو أعرف بأرض الأندلس منا فهو من أهلها.

يؤيده عروج..

* * *

مع سدول الظلام على الجزيرة الخضراء في الأندلس يرسو قارب صغير حمل أربعة أشخاص على مقربة من ساحل صخري؛ ليترجلوا منه.. كان الثلاثة.. طرغود وخير الدين وعلي الأندلسي وأحد البحارة الذي التفت إليه طرغود قائلاً:

ـ عد إلينا بعد ثلاث ليالٍ في هذا الموضع وفي التوقيت نفسه. مفهوم..

ـ أمرك سيدي. .

يلتفت إلى الآخرين ليرى عليّاً يتأمل في أنحاء المكان صامتاً فيبادره:

ـ اشتقت إليها. .

ـ كثيراً، بل أكثر مما تتخيل، فما كنت أظن أنني سأعود إليها بهذه السرعة مرة أخرى.

ـ إذاً، لا تطل التأمل وهيا بنا قبل أن يكتشف أمرنا وتكون الأخيرة، هيا بنا.

يتحركون في طريق حرشي نحو أعلى قمة جبل. .بادر خير الدين. .

ـ إلى أين ستكون وجهتنا الأولى؟

أجابه طرغود:

ـ سنحاول معرفة آخر أخبار الجزيرة ثم نرى.

* * *

يواصلون طريقهم حتى يصلوا إلى إحدى البلدات أسفل الجبل من جهته الأخرى، ويخترقون طرقاتها ثم يصلون أخيراً إلى أحد المنازل فيها. . يطرق طرغود طرقتين على الباب، وسرعان ما سمعوا صوتاً. .

ـ من؟

ـ طرغود.

ويفتح الباب فإذا به رجل مسن. . (جونزاليس). . استقبلهم بابتسامة.

ـ أهلاً وسهلاً بالإخوان. .تفضلوا، تفضلوا.

وبعد أن يتأكد أن لا أحد يتبعهم يلتفت إليهم. .طرغود!

ـ السلام عليكم أيها العجوز. .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. يا أهلاً وسهلاً، يا أهلاً وسهلاً بالقائد طرغود ومن معه. .

ـ كيف حالك أيها الأخ جونزاليس؟

ـ بفضل من الله، أحمده تعالى. . تفضلوا، تفضلوا. .

يدخل بهم إلى إحدى الغرف في منزل على الطراز العربي الإسلامي. . يقدم لكل منهم قدحاً. .

ـ ما أسعدني اليوم برؤيتك أيها القائد.

ـ بل أنا الأسعد أيها العزيز. . ترى كيف هي أمورك وأمور الجزيرة هذه الأيام. .

ـ بهذه السرعة، ألا تدعنا نحتفي بك وبصاحبيك الصغيرين أولاً اللذين لم تعرفني بهما.

ـ حقّاً، لقد كدت أنسى، اسمح لي أن أقدم لك مساعداي: خير الدين شقيق القبطان عروج، وعلي الأندلسي من بحارتنا الشجعان. . أما جونزاليس فهو من أخلص إخواننا المستعربين وأحد رجالنا في الجزيرة.

يرمي ببصره ناحية علي. .

ـ من أية عائلة أنت يا فتى؟

ـ أَوَلَكَ معرفة بعائلات الأندلس يا سيدي؟

ـ بالتأكيد، فإن لم يكن جميعها فأشهرها.

ـ أنا معافري؟

ـ معافري؟ من عائلة مولانا الملك المنصور ابن أبي عامر رحمه الله؟

ـ أجل؟ فهو جدي الخامس.

ـ فليرحمه الله وليجزه عن الأندلس وأهلها كل خير. كم كانت أيامه أيام رخاء وسعد وأمن.. (يلتفت إلى طرغود).. أتعلم أيها القائد؟ جد هذا الغلام لم ينحدر من أهل الملك أو السلطان، ولكنه مع هذا ملك الجزيرة ما يقارب خمساً وعشرين عاماً، وأصلح شأنها، وقوى أركانها أفضل من غالب الخلفاء والملوك الذين حكموها..

عقَّب طرغود..

ـ كل شيء بأمر الله تعالى، ولا أحد منا يعلم أين الخير.

قال جونزاليس..

ـ صدقت.. لا أحد يعلم أين الخير.

ـ والآن دعنا من حديث الماضي والذكريات وأخبرني ما هي آخر أخبار الإسبان؟ هل من جديد؟

ـ الكثير الكثير، وستعجب لما ستسمع.

* * *

في تونس حيث مقر قصر حاكمها وأميرها السلطان الحفصي، الذي زينته خطوط العمارة الإسلامية بزخارفها الأندلسية وأقواسها الشرقية الجميلة، نلمح السلطان بأبهة الملك في إحدى ردهات القصر وهو يسير مع صالح، مبعوث عروج إليه..

ـ بالطبع سيسعدني أن أستجيب إلى طلب القائد عروج فهو رجل بحر شجاع، وقد بلغتنا أخبار انتصاراته على الكفرة الإسبان، كما أن من واجبنا كسلطان لمسلمي تونس وما يجاورها أن نشارك معكم في مجهودكم لمعاونة إخواننا المنكوبين من أهل الأندلس بما نستطيع.. (يتوقف ويلتفت إلى صالح).. أيها القائد؟ أخبر قبطانك بأن السلطان الحفصي يشرِّفه أن يمنحكم جزيرة جربة، بكل ما فيها، لتكون قاعدة انطلاق لهجماتكم ضد الغزاة المحتلين، كما وأنني سأطلب من أركان الدولة ووزرائي وعمالي على كافة مدن الساحل أن يجهزوكم بكل ما تحتاجونه من مساعدة وعدة وفي أي وقت تطلبونه..

ـ إنك تغمرنا بواسع كرمك وعظيم مروءتك يا مولاي، وتأكد أننا لن ننسى لك هذا الفضل ما حيينا، كما وأن القبطان عروج سيسره أن يبلغك على لساني جزيل الشكر ووافر الامتنان لموقفك النبيل الذي إن دل على شيء فإنما يدل على أصالة ونسب رفيعين، بل وإني أؤكد لك في الوقت نفسه بأننا سنكون في خدمتك متى دعت الضرورة أو احتاج إلينا إخواننا في تونس..

ـ شكراً يا صديقي العزيز، وجزاكم الله عن الإسلام والمسلمين كل خير..

ويواصلان المسير بينما كان هناك من أطرق متسمعاً حديثهما فيما هو مختبئ خلف إحدى الستائر التي تزيِّن الممر، ويبدو أنه لم يكن مرتاحاً لذلك الاتفاق.

* * *

في جناح آخر من القصر السلطاني كان هذا الرجل يقف أمام ثلاثة أشخاص بدت عليهم وحولهم زينة الملك، وقد استرخوا في قاعة تظهر معالم الرفاهية والثراء في كل أرجائها.. يسأله الأول:

- أمتاكد أنت مما تقول؟

- هذا ما سمعته بأذني هذه يا مولاي..

يصمت برهة ويتبادل النظرات مع الآخرين ثم يعمد إلى كيس من المال ويرميه إليه..

- ولا تقطعنا من أخبارك.. (بعد أن يخرج).. ما رأيكما؟

قال الثاني:

- هذا ما كنت أتحسب منه وأخشاه منذ أن سمعته وهو يمدح هؤلاء القراصنة ويبدي إعجابه بهم وتقديره أعمالهم مع كل خبر يصل عنهم إلى مسامعه.

عقَّب الاول:

- ما كنت أظن أنه سيتهور إلى هذه الدرجة.. يمنحهم جربة لتكون قاعدة انطلاق لهجماتهم على الإسبان.

بتعجب قال الثاني:

- لا بد أنه قد جُنَّ ورب الكعبة، ألا يدرك عواقب مثل هذا التصرف على الدولة وعليه وعلينا معه؟ ألا يدرك خطورة محاربة الإسبان وعدائهم؟!!

ينهض إلى وسط القاعة ليتناول فاكهة.. الأول:

- لن يقتصر الأمر على الإسبان فقط، فلو كان الأمر كذلك

لهان، ولكنه بهذا يستعدي علينا كل الإفرنج؟ فعروج لا يستثني أو يفرق بينهم، فكل بلاد الإفرنج أعداؤه..

يهض إليه:

ـ فما ترى إذاً؟

يصمت مفكراً ثم يلتفت إلى ثالثهما الذي بدا صامتاً..

ردَّ الأول:

ـ دعنا أولاً نرى ما أمر صاحبنا «أبي العلاء» ألا تشاركنا يا رجل؟!!

ـ أشارككما؟!!

ـ ألن تشاركنا التفكير في حلٍّ لما فعله ابن عمك محمد وما يريد أن يفعله؟

يدنو منه ويجالسه..

ـ وما ترى أنت؟

يلتفت إلى صاحبه ثم يعود إليه:

ـ إنما رأيك ما أسأل عنه؟

يصمت برهة..

ـ والله ما أراه إلا قد فعل عينٍ الصواب، فما ضاعت الأندلس إلا بعكس هذا الفعل، حين تخلَّينا عن ديننا أولاً، ثم تخلينا عن نصرة بعضنا بعضاً، فتخلى الله عنا فضاعت الأندلس.

رد الأول:

ـ ويحك يا أبا العلاء.. وهل تظن شرذمة صغيرة كعروج ورجاله يمكنهم أن يصنعوا شيئاً مع الإفرنج؟!!

ـ ليس علينا إدراك النجاح؟ إنما نحن مطالبون بالسعي، أما النتيجة فأمرها متروك لحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى، ومع هذا فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ صدق الله العظيم.. وقطرة الماء يمكنها أن تفلج أقسى الصخور وأشدها إن استمرت بالسقوط عليها.

الثاني:

ـ كأنما الأمر وافق هواك أيضاً؟

ـ لا دخل لهواي بالأمر إنما هو دين الله تعالى، على قدر مغارمك فيه يهبك مغانمه، والعاقبة لمن يعقل ويتوكل.

يصمت الاثنان مفكرين فيما قاله أبو العلاء.

* * *

على أي حال لن تمضي سنون كثيرة حتى يتبدل الحال ويستطيع هؤلاء النفر دسَّ سمومهم الدنيوية في أفكار السلطان وإدارته باتجاه السخط على عروج ورجاله. فمن مؤيد إلى معارض لوجودهم، أو قُلْ الخوف من انتصاراتهم.. هكذا هو الحكم والملك ومن يزاوله، إن لم يكن ذا شخصية قوية وإرادة صلبة حديدية لا تلين، ملكته الأمور وتلاعبت به الأهواء فسقط كما ورقة الشجر في نهايات الخريف صفراء عجفاء لا حياة فيها تطير مع أخف النسمات.

* * *

بعد يومين كان طرغود وخير الدين وعلي الأندلسي، برفقة جونزاليس، يقفون على أطراف إحدى التلال المطلة على مدينة ملقة المحتلة من الإسبان حيث أقيمت ورشة ضخمة لصناعة السفن..

سأل طرغود:

- متى بدأت هذه الورشة العمل؟

أجابه جونزاليس..

- بدؤوا فيها قبل شهرين تقريباً..

- بعد مهاجمتنا السفينة الملكية!!

- بالضبط.. وما استطعت أن أحصل عليه من أخبارها، أنهم ينوون بناء أربعة سفن ضخمة من النوع العسكري لمواجهة هجماتكم عليهم.

صمت طرغود برهة متأملاً العمل ثم التفت إليه:

- وماذا عن البقية؟ أعني الممالك الأخرى المتحالفة معهم، هل ستفعل مثلهم؟ أم إنهم جميعاً مشتركون في ذلك؟

- هذا ما أعمل عليه وأحاول أن أحصل على أخباره، ولكن تبادرت إلى أسماعنا إشارات وإشاعات أن ملك جنوى وصقلية وآخرين في أوروبا يعدُّون العدَّة لمشروع مشترك مماثل، ولكني لم أتاكد بعد من الخبر.

- أتظنهم يعدون لغزو المغرب؟!

يلتفت إليه الاثنان مندهشين من سؤاله..

- لا أستبعد ذلك، خصوصاً أن عدد السفن حتى الآن لا

يوحي بأنهم ينوون مواجهة عدو لا يملك إلا سفينة واحدة! ثم إنهم لن يفوتوا فرصة كهذه بعد الاستيلاء على الأندلس.

ـ صدقت والله، فشهيتهم لا تزال مفتوحة!

* * *

في قصر الحمراء اجتمعت الملكة إزابيللا بزوجها الملك فرنانديز يتباحثان في شأن من شؤونهما.. جلست هي على أحد المقاعد المنتشرة في غرفة الضيافة الرئيسة، فيما وقف هو متطلعاً عبر إحدى النوافذ. .لم تكن العلاقة بين هذين الاثنين علاقة زوجة بزوج، ولم تجمعهما المودة والرحمة، إنما بنيت علاقتهما من الأساس على المصالح المشتركة في طرد المسلمين العرب وتوسيع مملكتيهما قشتالة وأرغون وفق المبدأ السياسي «الغاية تبرر الوسيلة».. وبعد أن تحققت الغاية أصبح من المألوف أن يظلل الشك والريبة وعدم الاحترام علاقة هذه بهذا.. سألته:

ـ ألا ترى أنك ترهق ميزانية المملكة بمشروعك الطموح لبناء ذلك الأسطول الضخم من السفن..؟

ـ أرهق ميزانية المملكة؟!!

ـ ألا تعلم بأن المصروفات قد بلغت حتى الآن أكثر من أربعمئة ألف ألف قطعة من الذهب، والمشروع لا يزال في مراحله الأولى.

يقول وهو يدنو منها:

ـ أعلم ذلك، ولكن ما لا تعلمينه أن من أبلغك هذه الأنباء لم يكملها لك.

ـ ماذا تعني؟!!

ـ ألم يبلّغك جواسيسك عليّ بأن هذه المصاريف ليست من دخل ميزانية المملكة؟

ـ إذن من أين؟!!

يعود إلى النافذة:

ـ من أموال الموركسيين.. ضرائب جديدة أمرت الجابي أن يفرضها عليهم.

وهي تنهض غاضبة..

ـ ضرائب جديده؟!!

ـ أجل.

تتقدم منه:

ـ متى وكيف حدث هذا بدون علمي؟!!

يلتفت إليها وبابتسامة..

ـ لم أشأ أن أشغل رأسك الجميل بأمر تافه كهذا!

ـ **ويحك، هل جننت يا رجل؟!!**

تقول بحزم:

ـ أتدرك معنى ما أقدمت عليه؟ إنك بهذا تزيد من نقمة الموريسكيين علينا، وهي أصلاً متأججة بسبب ما نفرضه عليهم من ضرائب مرتفعة؟!!

ـ لا عليك، أنا أعرف كيف أحتويهم.. فطيبي خاطراً.

ـ بالقوة، أليس كذلك؟

ـ من أجل إسبانيا كل شيء يهون! أليست هذه مقولتَكِ، أم تراك قد نسيت؟

ـ لم أنس ولكن يا عزيزي إنـ . .

يقاطعها:

ـ عزيزتي إزابيللا! أنت منزعجة بسبب أمر الأسطول وليس غيره! أليس كذلك؟ . . (تصمت متطلعة إليه) . . صدقيني ما أفعله هو لمصلحتنا أنا وأنت، ومملكتنا التي سترثها وحيدتنا خوانة . . يجب أن نتركها لها مرهوبة الجانب قوية مهابة من قِبَل كل من يحيطون بها، سواء من الأوروبيين أو العرب المسلمين على الجانب الآخر من البحر . . يجب أن يعرف الجميع أن اللعب معنا ما عاد كالسابق، وأننا أصبحنا ذوي قوة، ونستطيع أن نؤذي من يريدنا بسوء.

ويبدو عليها الاقتناع بما قاله، فتصمت . .

* * *

يعود طرغود وصالح إلى القائد عروج فيجتمعان به منفردين في إحدى غرف أحد الحصون في جربة والمطل على البحر حيث رست سفينته . . يشير له طرغود على خريطة لسواحل الأندلس قائلاً:

ـ هنا وهنا وهنا أيضاً . .

ـ ثلاثة مواقع . . يبدو أنهم يخططون لبناء أسطول كبير . .

ـ الواضح حتى الآن أنها أربع سفن، ولكن لا يبدو ذلك من عدد المعدات والرجال والمواد.

يصمت برهة متأملاً في الخريطة..

- صالح! ما رأيك؟

- قد تكون خدعة..

- خدعة؟!!

- لا بد أنهم قد وضعوا في حسبانهم أننا نتجسس عليهم، لذا أرادوا أن يوهمونا بأنها أكثر من أربع سفن فنخاف ونغيِّر أو نخفف من عملنا.

أيده طرغود:

- وجهة نظر مقبولة..

- وما رأي شقيقنا؟

يرمقه خير الدين..

- رأيي أن نطلب مدداً أيّاً كانت الاحتمالات.

يتبادل الجميع النظرات:

- وممن؟ من الحفصيين أم من الزيانيين أم من ولاة الجزائر وطرابلس الخائفين، ممن تتوقع العون؟!!

- من العثمانيين.

عادوا لتبادل النظرات مندهشين.

- الأتراك؟!!

- أجل الأتراك؟ فمما يبدو أنهم ينمون بسرعة كبيرة ونجاحاتهم في أوروبا تشهد لهم، ولعل ما فعله محمد الفاتح في القسطنطينية أكبر دليل على أنهم القوة المقبلة، ولا أراهم إلا سيزحفون باتجاه إمارتي التركمان في ذي القادر وغولاري

فيسحقونهما ثم يصلون إلى الشام ومصر وغيرهما من بلاد العرب المسلمين.

بادر صالح:

- وهل تظن المماليك سيسكتون؟

- سيقاومون ولكن لا أظنهم سيستطيعون الوقوف بوجه العثمانيين، ثم إن الأمة بدأت تضج من أفعالهم، وهذا سيساعد الأتراك في قتالهم..

يبتسم في دهشة..

- من أين لك كل هذه المعلومات يا فتى؟!!

- مستمع جيد..

- إذاً أنت ترى أنهم القوة القادمة؟

- هذا ما اراه..

يلتفت مرة أخرى إلى معاونيه..

- ما تريان؟

أجاب طرغود:

- وجهة نظر مناسبة، ولكن أرى ألا نتعجل ولنتريث حتى يصلوا إلى بلاد الشام أو مصر، ساعتها يمكن القول إنهم الأقوى، خصوصاً وإنهم الآن لا يملكون أي أسطول بحري، بل إن زحفهم لا يزال على الأرض.

ينقل عروج بصره إلى صالح..

- لقد اتصلنا بالمماليك وكل إمارات الشرق الأفريقي، ولم

نجد من يعيننا إلا الحفصي، فما الذي يمنع أن نتصل بهم لعلهم يعينوننا بالمال على الأقل.

ويصمت عروج برهة مفكراً، ولكن أحد رجاله يطرق عليهم الباب فيقطع عليه تفكيره:

ـ ادخل.. (يدخل).. ما وراءك؟

ـ لقد وصلت يا سيدي.

ـ وصلت!!

ـ أجل وفي طريقها إلى الرسو..

ـ رائع.

بدا الاندهاش والتساؤل على ملامح الجميع، فسأل صالح قائده..

ـ ما الأمر؟

ـ تعالوا معي وسترون.. هيا.

* * *

سفينة عملاقة تقارب حجم سفينتهم الراسية في الميناء وهي في طريقها إلى الرسو، فيما يصل عروج ومن معه وكذلك البحارة يراقبون عن كثب رسو السفينة العملاقة.. بادره صالح:

ـ ما هذه؟!!

ـ أسميتها الجوهرة السوداء..

طرغود:

ـ الجوهرة السوداء؟!!!

ـ أجل إنها السفينة الجديدة التي ستنضم إلينا في محاربة الإسبان وحلفائهم..

ـ لم أفهم؟!!!

يلتفت إليه خير الدين..

ـ الأمر لا يحتاج إلى شرح أيها البحار القديم.. يبدو أن قائدنا قرر أن يوسع عملياتنا ضد الأعداء بانضمام هذه اللؤلؤة إلى سفينتنا.

بقيت الحيرة تطغى على الآخرين من المفاجأة..

* * *

على متنها تجول الجميع، داروا في أرجائها الواسعة وقد بدت أكبر من سفينة عروج الذي راح مثل الآخرين يتفحص أركانها فيما لحق به صالح وطرغود.. يسأله صالح:

ـ اشتريتها..؟

ـ أجل..

ـ منذ متى؟ وكيف لم تخبرنا من قبل؟!!

ـ أردت أن أجعلها مفاجأة للجميع..

يتدخل سالم:

ـ ويا لها من مفاجأة.. ولكن ألا ترى أنها ستكون مكلفة بعض الشيء؟

يتوقف ويلتفت إليه عروج:

ـ ماذا تعني؟!!

ـ أعني من أين ستتدبر أجور بحارتها ومقاتليها؟

- ومن أين نتدبر أجور بحارتها؟! مما نحصل عليه من سفن الإسبان بالطبع.

- وهل ستكفي؟!!

- ويحك أيها البحار القديم، ألم يصنعوا أربع سفن كاملة؟ فتفاءلوا بالخير إذاً تجدوه.

ويتبادل الاثنان النظرات مندهشين..

* * *

وتمضي السنون.. ويستأنف عروج هوايته في الهجوم على السفن الأوروبية التجارية، مستولياً على ما تحمله من بضائع وأموال، وآسراً رجالها، وفي الوقت نفسه يستمر في مدّ يد العون والمساعدة للهاربين من الأندلس على متن قوارب صغيرة.. ملقناً أوروبا دروساً في فن المعارك البحرية..

ومع مطلع عام ٩٠٤هـ ١٥٠٠م يقف فرنانديز ملك قشتالة وعموم إسبانيا في بلاطه خطيباً في غالب ملوك أوروبا المجتمعين عنده:

- ... وعليه يا أصحاب الجلالة، وكما أسلفت فإن هذا القرصان المحمدي قد أوغل بنا قتلاً وسطواً، وقطع مع رجاله من اللصوص على سفننا التجارية البحر الأبيض، فحرمنا من التواصل بتجارتنا مع دولنا أو الدول المجاورة، بل إنه راح يفعل ما هو أكثر من ذلك بقيامه بغارات شبه دائمة على موانئنا ونحن لا حول لنا ولا قوة..

أحد الملوك يبدي تململاً..:

ـ هلا اختصرت أيها الملك؟

يصمت برهة متطلعاً إليه..

ـ حسناً.. طلبت الاجتماع بكم اليوم لأعرض عليكم خطة عرضها علي أحد قادة بحريَّتنا، الكاردينال دو سينيسروس، وأراها مناسبة للتصدي لهذا الخطر.. (يدنو دو سينيسروس من خريطة عملاقة معلقة على أحد الجدران.. وهو رجل ضخم الجثة يرتدي ملابس الباباوات، قاسي الملامح).. وسيتفضل بنفسه فيشرحها لكم..

ـ خطتي يا أصحاب الجلالة تحتوي على شقين: أولهما يختص بنا في مملكة قشتالة حيث إننا قد جندنا أكثر من عشرة آلاف مقاتل للتصدي له وسنعد السفن اللازمة لذلك، وكذلك الأموال. أما الشق الثاني فهو يختص بكم جميعاً وهو أن تساعدونا في هذا الأمر، وذلك عبر تضييق الخناق عليه وجعله يتحرك في منطقة ضيقة ليسهل على رجالنا وسفننا مواجهته.

سأله ملك آخر:

ـ هلا أوضحت؟!!

يتوجه إلى مقعده..:

ـ ما أعنيه يا مولاي أن تساعدونا في احتلال إحدى الممالك الأفريقية العربية على الساحل الإفريقي.. (همهمة).. فبذلك سنحصره في منطقة تقدر بربع المسافة التي يتحرك فيها الآن..

ملك ثالث.. يلتفت إلى فرنانديز:

ـ ما هذا يا فرنانديز؟ هل تريد أن تحل مشكلة بمشكلة أخرى؟

ـ ماذا تعني أيها الملك؟!!

ـ أعني، ألا تخشى في خطتك هذه مواجهة المسلمين في تلك الممالك وما قد يسببونه لنا من مشاكل وهم الذين خبرنا قتالهم وشدة بأسهم فيما لا يزال خطر هذا المحمدي يواجهنا. .

يتدخل الكاردينال دو سينيسروس. . :

ـ من هذه الناحية لا تقلق بالك يا سيدي، فقد درسنا الأمر جيداً، ووضعنا لكل شيء حلولاً مناسبة؛ فالمسلمون لم يعودوا تلك القوة التي ترهب بعد قضائنا عليهم هنا في إسبانيا. أما فيما يخص قرناءهم في أفريقيا فهم الآن متناحرون فيما بينهم ولا أظنهم سيهبون لمساعدة بعضهم إن نحن هاجمنا أحدهم، وأكبر دليل على ذلك السنوات الثلاث الماضية، فقد كانت سفننا تقوم من حين إلى آخر بشن هجمات متكررة على طول ساحل تلك الإمارات، ولم يحرك أيٌّ منهم ساكناً باستثناء ذلك الوغد المحمدي، كما وإن كراهيتهم بعضهم بعضاً ستساعدنا في مهمتنا، فقد عقدنا اتفاقاً مع الحفصيين في تونس وإمارة طرابلس بعدم التدخل لقاء إيقاف هجماتنا على موانئهم. .

ملك رابع. . متسائلاً:

ـ هل نفهم من هذا أنك قد اخترت المملكة المطلوبة لذلك؟

أجابه الكاردينال:

- بالتأكيد يا صاحب الجلالة؛ فهذه المملكة هي أضعف من الجميع وأشدها كرهاً من الآخرين. . إنها الجزائر.

* * *

وفي منتصف العام نفسه ٩٠٤هـ ١٥٠٠م. . نجح فرنانديز في الحصول على الدعم الأوروبي لاحتلال الجزائر، وعلى أثر ذلك سيَّر أسطولاً كبيراً محملاً بآلاف الرجال باتجاه هدفه المنشود. . مع حلول الظلام تقترب السفن الإسبانية من سواحل الجزائر ليلاً وتبدأ بغزوها. .

ينزل على السواحل الجزائرية آلاف الرجال المدججين بالسلاح لاحتلال المدينة، فيتصدى لهم عدد من رجال الجيش الجزائري إلا أنهم يبادون، وتبدأ موجات الجنود الأوروبيين من أكثر من ستة سفن بالنزول إلى الأراضي الجزائرية، ليواجههم الجيش الجزائري في عقر داره. وتدور معركة شرسة بين الطرفين تستمر حتى الصباح، إذ يتمكن المدافعون من صدٍّ موجات المقاتلين الأوروبيين الأولى، وحصرهم في إحدى القلاع المطلة على البحر.

* * *

في قصر سالم التومي حاكم الجزائر التف حوله مجموعة من رجالات حكمه ومستشاريه وقادة جنده يبحثون فيما استجد من أمر المعركة. . استرسل أحد القادة شارحاً الموقف. . :

- تمكنا من صدهم عند السواحل الشمالية وأوقفنا زحفهم

باتجاه مدن الساحل إلا أنهم استطاعوا احتلال حصن المالحة في بداية الهجوم.

سأله سالم:

ـ ولم لم تصدوهم عن ذلك أيضاً؟

ـ للأسف يا مولاي، فقد كنا أمام أمرين مع بداية هجومهم الضخم.. فبعد نزولهم بأعداد ضخمة إلى الساحل وإبادتهم طلائعنا الأولى، رأينا إما أن نضحي بالحصن والقلعة لنعيد ترتيب صفوفنا في نواحي المدن الساحلية للتصدي للمهاجمين، أو نتصدى لهم عند الحصن، ما يعني سقوط آلاف الرجال، ولن نتمكن عندها من ردعهم فيما بعد إذا ما تطور الهجوم إلى المدن، وكان ما حدث.

ـ حسناً والآن ما الذي ننتظره لتحرير المالحة؟

يصمت القائد وتتيه نظراته في المكان ووجوه الآخرين ثم يقول:

ـ للأسف يا مولاي، فما عاد لدينا من القوة ما يمكن أن يكوّن قوة هجوم وضرب. فجلُّ الرجال سقطوا في الدفاع، وما نملك من قوارب قد تم تحطيمه، أو استولى عليه الإسبان، لذا فالوضع محرج وقلق.

ـ فهمت.. تعني أننا لا نملك من الجند ما يكفي لمهاجمة القلعة؟

ـ بل أكثر من ذلك يا مولاي.. إن لم نتدارك بنجدة سريعة قد لا نتمكن من مواصلة الدفاع أيضاً.

صمت رهيب يحل برهة على الجميع. . ثم يبادر أحد المستشارين:

ـ لدي رأي إن سمح مولاي السلطان أبديته.

ـ قل يا ابن الحسن.

ـ أرى يا مولاي أن نطلب المساعدة والنجدة!

يبتسم السلطان بسخرية:

ـ ويحك أيها الوزير. . نطلب المساعدة! ممن؟. . من المرينيين أم من الحفصيين؟! الجميع على خلاف معنا ويتحين الفرص لمثل ما نواجهه الآن، ولا أستبعد أن بعضهم قد ساعد الإسبان في الهجوم علينا بشكل أو بآخر.

ـ لم أقصد أياً ممن ذكر مولاي السلطان.

ـ ممن إذن؟!!

ـ لقد سمعت من بعض البحارة أن هناك مجموعة من رجال البحر قد نشطوا في الآونة الأخيرة في مواجهة سفن الإسبان والتجار الأوروبيين والاستيلاء عليها باسم الانتقام لمأساة الأندلس يقودهم رجل يدعى عروج وهو لا يتردد في مساعدة من يطلبه من المسلمين، فلو بعثنا إليه رسالة وطلبنا نجدته فلا أظنه سيتأخر؛ ومن جانب آخر يمكننا أن نستفيد منه ومن رجاله لتعزيز قواتنا.

يقفز أحد الموجودين:

ـ أيسمح لي مولاي؟

ـ قل.

ـ أنا لا أرى يا مولاي في الرأي الذي أبداه الوزير شيئاً من الصواب.

ـ ماذا تعني؟

ـ ما لدينا من معلومات عن هؤلاء الرجال يؤكد أنهم ليسوا برجال بحر خالصين، بل هم قراصنة! لصوص وشطار يسطون على السفن ويسلبونها تحت غطاء الانتقام للأندلس وما جرى ويجري للمسلمين فيها، ولا أظنهم يمكن أن يكونوا عوناً لنا في أمرنا هذا، وحتى لو فعلوا فلا أظننا يمكن أن نأمن شرهم مستقبلاً فينقلبوا على السلطنة.

قال الوزير:

ـ ولكن يا عزيزي المستشار، هذه إشاعات وأقوال مغرضة أطلقها عليهم خصومهم وخصوصاً الإسبان والإفرنج لما لاقوه منهم من خسائر وهزائم.

ـ أيّاً يكن يا عزيزي أبا الحسن فما لنا أن نغامر ما دامت سمعتهم كذلك.

ـ وهل تظن السلطنة أنه يمكن أن ننجو بما تحت أيدينا؟

التفت المستشار إلى الأمير:

ـ إن سمح لي مولاي فإن لي رأياً.. (صمت الجميع فاسترسل المستشار).. أرى أن نهادنهم.. نعرض عليهم الجزية أو على الأقل نبعث لهم لنرى ما يطلبونه مقابل وقف القتال.

بادر الأمير..:

ـ ألم نفعل ذلك قبل أن يهاجمونا..؟ كلا لا أظنهم سيتوقفون أو يرضون بما سنعرضه عليهم، إنهم يرنون إلى ما تحت أقدامنا.. رأيي هو ما قاله الوزير وليفعل الله ما يشاء.. فلترسلوا إلى عروج هذا ورجاله.

* * *

بدا الكاردينال على إحدى السفن.. يصل إليه أحد مساعديه مهرولاً بعد أن وصل على متن قارب من الساحل..

ـ ما الأمر أيها الضابط؟ فيم حضورك؟!!

ـ للأسف يا سيدي يبدو أننا سنواجه بعض الصعوبات في اقتحام المدينة..

ـ ويحك ماذا تعني؟!!

ـ لقد فوجئنا بمقاومة عنيفة لم نحسب لها حساباً حصدت أغلب جنودنا بعد أن دخلوا المدينة، ما اضطررنا معها إلى التراجع والتحصن في القلعة التي استولينا عليها مع بداية الهجوم.

ـ مقاومة؟!!.. (يصمت برهه).. وما الموقف الآن؟

ـ سيئ للغاية إن لم يصلنا المدد الكافي في أقل من يوم؛ فكل ما أستطيع أن أؤكده أنه يمكننا الصمود حتى صباح غد فقط.

* * *

في الوقت نفسه، وفي عرض البحر تصل إحدى الحمائم الزاجلة إلى وكر البريد على إحدى سفن عروج تحمل أنباء عما جرى في الجزائر، فيسارع حامل البريد بالرسالة إلى عروج

الذي ما أن يقرأها حتى يفاجأ بما تحمل من أخبار.. ويهمس في نفسه..

ـ الأوغاد.. (يصمت برهة ثم سرعان ما يأمر حامل الرسالة..).. سالم؟ أعلن في الرجال النفير العام ليستعدوا للقتال، وأبلغ الربان أن الاتجاه هو إلى الجزائر، ثم استدع لي «صالح» و«طرغود» وابعث إلى خير الدين وأيدين ريس ليوافياني إلى هنا بسرعة..

ـ أمرك سيدي.

يبقى وحيداً يفكر ثم ينهض بسرعة إلى إحدى الخرائط ليفضها ويضعها أمامه.. وما هي إلا دقائق قليلة حتى يدخل عليه صالح وطرغود..

ـ السلام عليكم..

وهو مشغول بالتطلع في الخريطة..

ـ وعليكما السلام....

صالح:

ـ ما الأمر؟ أرى الرجال يعدون سيوفهم وعدتهم للقتال؟ أسنهاجم أحداً؟

ـ أجل فقد وصلت للتو رسالة استغاثة من أمير الجزائر يطلب مساعدتنا.

يسلمه الرسالة فيقرأ..

ـ الإسبان هاجموا الجزائر!!!

ـ الحمد لله لم يتمكنوا حتى الآن إلا من الاستيلاء على

قلعة المالحة، سنصلهم إن شاء الله في الوقت المناسب.

يتبادل صالح وطرغود النظرات فيما بينهما صامتين..

* * *

وبعد يوم كامل من الإبحار تصل السفينتان إلى سواحل الميناء الشمالي للجزائر، فترسوَا، ويبدأ رجالهما بالهبوط إلى الميناء، وفي الوقت نفسه يصل أحد القادة الجزائريين لاستقبال عروج ورجاله..

ـ **أهلاً وسهلاً بالقائد عروج وبرجاله الشجعان؟ أهلاً وسهلاً.**

ـ أهلا بك يا سيدي..

ـ أنا أدعى عبد الله بن التومي، شقيق الأمير سالم التومي أمير الجزائر..

ـ أهلاً وسهلاً..

ـ يشرفنا وجودكم معنا، ولكم نحن مسرورون لتلبيتكم السريعة لطلبنا.. لقد أعددنا لكم كل شيء. تفضلوا معي أيها السادة..

يتحرك عروج ومساعداه صالح وأيدين مع عبد الله..

ـ معذرة أيها الأمير؟ ولكن ألن توجه رجالي إلى مكان المعركة؟

ـ سيتولى رجالنا ذلك.. إسماعيل، قم بإرشاد سفن القائد عروج إلى الجهة التي سيرابطون فيها.. (يلتفت إلى عروج).. أما نحن فسنتوجه إلى مقابلة الأمير..

* * *

وتحتدم المعركة بين الطرفين حول القلعة حيث يتساقط الرجال قتلى أو جرحى، إذ يحاول الجزائريون ومن معهم أن يشددوا الحصار حول القلعة المحتلة، وفي الوقت نفسه مناوشة باقي السفن والقوات التي رابطت في البحر . . وعلى متن سفينة القيادة الإسبانية حيث كان الكاردينال يراقب عن كثب . . يدنو المساعد من قائده . .

ـ سيدي . .

وهو يراقب سير المعركة:

ـ ما وراءك أيها المساعد؟

ـ أخبار غير سارة يا سيدي.

توقف عن المراقبة والتفت إليه:

ـ ما الأمر؟!!

ـ لقد وصلت العدو إمدادات . .

ـ إمدادات، ممن؟!!!

ـ قراصنة البحر العرب.

يصمت خيفة وقد تغيَّرت ملامحه ثم يهمس في نفسه . .

ـ سحقاً، هذا ما لم نحسب له حساباً . . وما وضع قواتنا في القلعة؟

ـ لا يسرُّ بالمرة يا سيدي، إن لم نتداركهم بسرعة فقد يبادون عن بكرة أبيهم خصوصاً مع استعدادت العدو لشن هجوم شامل على خطوطنا هنا . .

يصمت الكاردينال غير مصدق ما تسمعه أذناه . .

* * *

بعد يومين ومع حلول الظلام كان عروج وشقيقه يتابعان الموقف العسكري بعد توقف القتال حتى الصباح..

قال خير الدين:

- تتمركز جلُّ قوتهم خارج نطاق الساحل المقابل للقلعة، ولا يحاولون الزج بها خوفاً من المفاجأة ولكنهم مع هذا يقومون ببعض التحركات للبحث عن نقاط الضعف في تحصيناتنا، وأرى أنهم بذلك يمنحوننا الأفضلية للقيام بهجوم واسع لو أننا أفقدناهم ميزة التنظيم..

سأله عروج..

- وكيف تنوي فعل ذلك..؟

- نرغم قيادتهم على التحرك والزج بما لديها من بقية قوات إلى المعركة.. بناء على خطة أعددتها سلفاً.

يصمت برهة متأملاً، ثم يوجه سؤالاً إلى طرغود..

- من يكون قائدهم؟

- أحد كاردينالاتهم، ويدعى «دو سينيسروس».

- كاردينال، أليس هذا من ألقاب رجال الدين عندهم؟!!

- بلى..

يبتسم بسخرية:

- الأوغاد، لم يتركوا شيئاً للصدفة.. (يلتفت إلى شقيقه).. وما هي الخطة؟

عاد خير الدين:

- الخطة تعتمد على أن أقود بنفسي مجموعة من الغواصين

لنسبح قبيل الهجوم بما يقارب الساعة تقريباً حتى نصل إلى مراسي سفن الإسبان ونقوم بإغراق ما نستطيع من قواربهم، فيما فريق آخر يقطع حبال المرساة في كل سفينة..

أكمل صالح:

ـ ومع حركة الموج ستندفع السفن بقوة نحو الشاطئ فتصطدم بالصخور..

إيدين معجباً:

ـ فكرة حصيفة..

ـ ما رأي القائد العام؟

ـ على بركة الله، ولكن حاولوا قدر الإمكان الانتباه لأنفسكم فلا نريد خسارة أحد.. إيدين.. أنت وطرغود ستحلان محل خير الدين في قيادة الجوهرة والهجوم من الجانب الغربي عندما أعطي الإشارة.. (فجأة يطرق عليهم الباب).. ادخل..

يدخل عليهم حسن..

ـ السلام عليكم..

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. ما وراءك؟

ـ رسول من الأمير سالم يقول إن الأمير أرسله في طلب مقابلتك على الفور سيدي..

ـ الأمير يطلبني أنا؟!!

ـ هذا ما جاء به الرسول.

خير الدين:

ـ لعله يريد أن يناقش معك خطة الهجوم..

ـ حسناً أبلغه أن يسبقني وسألحق به على الفور.

* * *

في بلاط الأمير جلس عروج أمامه يقرأ رسالة في صمت، وبعد أن انتهى التفت إلى الأمير الذي عاجله..

ـ وصلت قبل قليل فقلت: أعرضها عليك وأرى رأيك فيها، فما تقول؟!!

ـ أرى أيها الأمير ألا تجيبهم إلى الصلح إلا إذا انسحبوا من القلعة، واحذر فلا أمان لهؤلاء الإسبان..

ـ وماذا إن رفضوا؟

ـ نقاتلهم وسنخرجهم منها بإذن الله تعالى.

يصمت الأمير برهة ثم يلتفت إلى يمينه حيث مساعدوه وشقيقه..

ـ وهذا هو قول شقيقنا أيضاً.. ماذا إذاً عن رأي وزيرنا؟

ـ أصلح الله أميرنا وأبقاه، وإني أرى يا مولاي أنها فرصة في يدنا، والغيب لا نعلمه، خصوصاً إذا ما صمدوا وجاءهم المدد فقد ينجحون بأخذ ما بإيدينا الآن، والرأي لكم.

عقَّب عروج.. بلهفة..

ـ إن منحنا الأمير حتى الصباح فإن خطـ..

قاطعه الوزير:

ـ أيها القائد، عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة؛ ورجالنا ما عادوا يستطيعون الصمود أكثر من ذلك، والحصار

قد طال أمده كما ترى، ولا أحد يستطيع ضمان شيء غداً.. (يلتفت إلى الأمير).. ثم إن المالحة قلعة لا يعتد بها وإنما هي موقع ميت لنا منذ زمن ولن يمثل لهم الشيء الكثير، ولو أجبناهم على طلب الصلح مع بقائهم اليوم فسيمنحنا هذا الفرصة لإعادة ترتيب صفوفنا لمهاجمتهم واستردادها في المستقبل..

- أيها الأمير إنـ..

يرفع الأمير كفه اليمنى ليسكت عروج..

- لقد سمعت ما فيه الكفاية وليقدم الله ما فيه الخير، اتركوني الآن.



[٣]
وحوش البحر تضرب برّاً

كرجل جهاد وقتال يضع في حساباته أن الخيانة جزء لا يتجزأ من أي عمل عسكري، وعليه، فهو دائماً يتوقع حدوث مثل هذا الأمر في أي وقت وتحت أي ظرف، لذا كان يتوقع بحسه العسكري أن التومي أو أيّاً من الحكام الذين يسيطرون على السواحل الأفريقية المقابلة لساحة المواجهة مع الأوروبيين لا يمكن الوثوق بهم بشكل مطلق، فلا بد من حدٍّ للتعامل معهم، فهم ليسوا في رأيه أكثر من محبي ملك، وحراس له، وقد أفسدتهم الشهوات وعطلت عندهم أي إحساس بالمسؤولية تجاه الأرض والناس، وحين يستعين به أحدهم أو يعرض المساعدة فذلك لرغبة في استمالته هو ورجاله واستخدامهم. . لذا فلم يمثل له، وهو القائد المحنك، أمر التومي له بمغادرة الجزائر أي مفاجأة، وبالمقابل لم يكن ليترك الأمر يمر مرور الكرام. . فلا الظرف ولا الوقت يسمحان بأي تهاون من أي نوع كان، ولكنه لم يفصح لمن حوله بذلك. .

في الصباح كان عروج يسير على رصيف الميناء متوجهاً إلى

سفينته برفقة شقيقه ومساعده طرغود ويحثهم على إلغاء الخطة.

سأله شقيقه بدهشة!!

- ماذا تعني؟!!

- كما سمعت، لقد انتهى كل شيء.

- لم أفهم؟!!

يتوقف ويلتفت إليه:

- ما الذي لم تفهمه يا فتى، لقد قلت لك انتهى كل شيء، لا حرب ولا قتال ولا حصار، لقد أرسلوا إلى التوني لطلب إيقاف القتال مقابل أن يكتفوا بالقلعة فقط، وقد وافق.. ولم يعد في حاجة لنا، هل فهمت الآن.

- ولكن لماذا؟!!

تدخَّل طرغود:

- الأمر واضح يا فتى، آثر الكرسي على مصلحة بلاده.. (فجأة يتناهى إلى أسماعهم أصوات متعالية مبتهجة بإيقاف القتال مع الإسبان.. يلتفت الثلاثة، ويتأملون المشهد).. همس عروج:

- لا عجب أن يهزمنا الكفار ما دام هذا حال العامة، لا تهتم إلا بأمرها فقط.

- لكنه وضع لن يطول وإن كان التوني قد باع نفسه فلن نبيعها نحن.

* * *

بعد أقل من شهر وقبالة سواحل مدينة مرسية كانت ثلاثة قوارب صغيرة تقترب تحت جنح الظلام إلى الساحل وهي تقلُّ

مجموعة من الرجال بينهم خير الدين وعلي الأندلسي وإسماعيل وآخرون.. بعد رسوها يهبط الجميع ليلتفت خير الدين إلى من معه..

ـ حسناً يا رجال، بعد أن تنهوا مهمتكم عودوا إلى البحر وبعد ساعة من الآن تنتشلوننا في عرضه.. مفهوم، حاولوا أن تؤدوا مهماتكم بدقة ولا تعطوا الفرصة للعدو..

ـ حسناً إذاً، على بركة الله.. بسم الله الرحمن الرحيم..

ويتحرك الركب تحت جنح الظلام إلى داخل المدينة، خير الدين وصاحباه علي الأندلسي وإسماعيل.. ومن مكان إلى آخر يسيرون بحذر في أزقة المدينة وحواريها ثم يصلون في النهاية إلى جانب آخر من المرسى، فيكمنون يتأملون أربع سفن ضخمة ترسو في الميناء.. قال علي:

ـ ها هي السفن الأربع..

ـ إنها ضخمة..

تساءل خير الدين..

ـ هكذا أرادوا لها، أن تكون قوية، مرعبة وواسعة.

ـ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله.. حسناً، لنكمن بانتظار الإشارة.

* * *

في داخل المدينة كانت ثلاث مجموعات تتحرك بين الأزقة هي الأخرى وبسرعة كبيرة، حيث شرعت في مهمتها وهي تصيُّد عدد من رجال الجيش الإسباني وقتلهم، حتى إذا ما

وصلوا إلى إحدى الثكنات العسكرية استطاعوا بكل احتراف أن يتسللوا إليها وصولاً إلى مخازن السلاح حيث راحوا يبحثون عن شيء ما. فجأة صاح سالم:

ـ لقد وجدته..

يهرع إليه الآخرون، فيما يتقدمهم سالم ليكشف بقية الأغطية عن براميل كبيرة، فيفتح أحدها ليفاجأ بمسحوق أسود.. يتذوق بعضاً منه.. يسأله حسن:

ـ أهو؟!!

ـ نعم هو الملح الأسود الذي قال عنه العالم.. (يلتفت إليهم).. ابدؤوا المهمة..

ما هي إلا لحظات حتى دوت انفجارات ضخمة في سماء المدينة، ثم توالت الانفجارات في المعسكر بشكل قوي حتى وصلت أصواتها وصورة انبعاث النيران من البارود المحترق إلى بصر ومسمع خير الدين ومن معه الذين ابتهجوا بما رأوه، ويبدو أنها كانت إشارة البدء للفت انتباه الجميع إلى الانفجارات لتأدية الشطر الثاني من المهمة ألا وهو توجه الثلاثة سباحة إلى السفن الأربع وقطع حبال مراسيها لتسحبها الأمواج إلى عرض البحر.. وبالفعل هذا ما حدث، فقد نجحوا بقطع الحبال، وفي خضم انشغال الجميع بأمر التفجيرات كانت الأمواج المتوسطة تدفع بالسفن الأربع بعيداً عن مراسيها فيما يفر الثلاثة سباحة إلى عرض البحر..

ولازدحام المرسى بسفن أخرى، ولاندفاع الأمواج، فقد

راحت السفن تصطدم بعضها ببعض حتى تحطمت السفن الأربع ومعها سفن أخرى.. ولم ينتبه الجميع إلا متأخراً بعد أن انتهى كل شيء.

* * *

في الصباح كان فرنانديز يصرخ بقواده غاضباً في حضور زوجته الملكة إزابيللا..

ـ حمقى، أغبياء،كيف سمحتم لهم بذلك..؟

ـ لم ننتبه للأمر لأننا كنا مشغولين بمحاولة إطفاء النيران ومعرفة أسباب اشتعالها في المعسكر..

ـ أيها الأحمق وأين بقية جنودك، أين الحراسة التي أمرت ألا تغادر مواقعها على المراكب طوال الوقت؟!!

ـ للأسف اضطررنا للاستعانة بهم في إخماد النيران..

ـ غبي، غبي.. لقد خدعنا المورسيكيون.. لقد خدعوكم أيها البلهاء.. أشعلوا الانفجارات في المعسكر ليصرفوا أنظاركم عن المراكب، وحين تأكد لهم أنها بلا حماية قطعوا حبالها..

ـ ما كنا نظن أن..

ـ اغرب عن وجهي لعنك الرب.. هيا اخرج، اخرج..

تنهض إزابيللا من مكانها نحو زوجها الذي لا يزال الغضب يأكله..

ـ اهدأ يا فرنانديز، اهدأ..

ـ اهدأ، أتقولين، اهدأ..

ـ نعم اهدأ، فقد حدث ما حدث ولن ينفع غضبك في شيء، ولكن دعنا نجلس ونفكر في هدوء في كيفية الرد على ما فعله هؤلاء الأوغاد..

ـ أقسم لأجمعنهم جميعاً في الميدان العام وأحرقهم واحداً واحداً انتقاماً على ما فعلوه، فقد تجاوزوا كل الحدود هذه المرة في الإهمال.

ـ لا تكن غبيّاً يا زوجي العزيز، فليس المورسيكيون من فعل بنا هذا.

ـ ليسوا هم؟!!!

ـ كلا بالطبع ليسوا هم، بل القراصنة.

ـ القراصنة؟!!

ـ أجل، القراصنة، لا بد أنها فعلة ذلك القرصان العربي المسمى وحش البحر.. عروج ورجاله.

ـ وما الذي يجعلك متأكدة من ذلك؟!!

ـ لا تنخدع بالفعل يا عزيزي وانظر إلى الأسلوب الماكر الذي نفذت به العملية، إنه أسلوبهم بكل تأكيد.. فقد خططوا جيداً للعملية.. مجموعة تهاجم ثكنات الجيش وأخرى مراسي السفن، إنهم يرسلون إلينا رسالة واضحة في الوقت نفسه.

ـ لم أفهم، ماذا تعنين، أية رسالة؟!!!

تدنو من إحدى النوافذ وتبتسم، وبصوت هامس علّقت:

ـ أرادوا إخبارنا بأنهم قد باتوا يستطيعون الوصول إلينا في

عقر دارنا، ولا بأس، فقد أعجبتني لعبتهم.. (تلتفت إلى زوجها).. وسألعب معهم.

* * *

في الأناضول عاصمة الدولة العثمانية الناشئة حيث قصر السلطان العثماني بايزيد.. اجتمع مع وزيره وابنه سليم.. بدا السلطان رجلاً كبيراً في السن قارب الثمانين، إلا أنه كان ممتلئاً حيوية وقوة، وقد بدا ضخم الجثة في أتم صحة وإن تثاقلت خطواته بعض الشيء.. وهو يسير في إحدى ردهات القصر برفقة ولده وولي عهده سليم ووزيره شاه أحمد.. التفت إلى الوزير:

ـ ما ترى أنت أيها الوزير في هذا الأمر؟!

ـ الحق يا مولاي، لقد بلغ أسماعي كما بلغ أسماع بقية المسلمين أفعال هؤلاء الرجال وقائدهم، وأرى أننا الآن مقبلون على ظهور دولتكم كما أنبأت بذلك أخبار جندكم وانتصاراتهم في معارك توحيد الأناضول وأوروبا، وسيكون من المهم أن يكون للدولة ذراع تستند عليه إذا ما انتقلنا إلى الجانب الآخر من الأناضول.

(يصمت برهة مفكراً ثم يلتفت إلى ابنه):

ـ وما رأي ولي عهدنا وقائد جيوشنا؟

ـ فلنستجب لطلبهم يا مولاي، خصوصاً وإن مطالبهم تنحصر في المساعدة المالية فقط مقابل أن يخضعوا لسلطاننا ويكونوا العون لنا في معاركنا المقبلة مع الإفرنج أو سواهم،

وأظننا سنحتاج إلى أمثال عروج هذا ورجاله إذا ما تنامت قوتهم في تأمين الحماية البحرية في البحر الأبيض، وخصوصاً للجزر التي فتحناها من قبل.

- حسناً إذاً، على بركة الله، ليكن ذلك.. شاه أحمد..

- مولاي.

- لتخبر رسول عروج بأننا نوافق على مساعدتهم بالمال كمرحلة أولى وسننظر في مساعدات أخرى لاحقاً.

* * *

في عام ١٥٠٤ ماتت إزابيللا ملكة قشتالة وهي توصي زوجها بمتابعة الحرب ضد أعداء الإيمان الصليبي، وانفرد زوجها فرنانديز بحكم اتحاد المملكتين، ولم يكن لهما من الأبناء سوى ابنة واحدة أصيبت بالجنون بعد وقت من وفاة زوجها.. عرفت بعد ذلك بلقب خوانة المجنونة أو المعتوهة.

* * *

في العام ١٥٠٥م وبينما تمخر الجوهرة السوداء، سفينة خير الدين، السواحل الجنوبية المقابلة لإسبانيا يلمح أحد المراقبين على متنها قارباً صغيراً عن بعد فيهمس في نفسه:

- سحقاً، إنها أحد قوارب الفارين من الأندلس.

ويهرع إلى قمرة القيادة مسرعاً.. قافزاً من أعلى الصارية بحبل مشدود إلى صاريةٍ أخرى، متدلياً بسرعة البرق من مكان إلى آخر، حتى يحطَّ أمام السلم المؤدي إلى قمرة القيادة..

كان خير الدين يقرأ القرآن في قمرته حين طرق عليه

الباب.. وما أن أذن للطارق بالدخول، حتى فاجأه المراقب فرحاً..

ـ سيدي أحد قوارب الفارين من إخواننا في الأندلس.

ـ الفارين؟!!

ويسرع مع بقية مساعديه وهما علي الأندلسي وصاحبه إسماعيل وراحوا يراقبون بالمنظار..

ـ أين هم؟

ـ يا سبحان الله لقد كانوا في منتصف البحر قبل قليل.؟!!!

ـ أمتأكد أنت مما رأيت؟

ـ صدقني يا سيدي ما كان يمكن أن أخطئهم.

ـ هل نمت جيداً يا فتى قبل أن تتولى المراقبة؟

ـ سيدي وما كنت لأخطئ، صدقني..

يلتفت خير الدين إلى علي وإسماعيل صامتاً ثم يعود إلى المراقب.. علّق علي:

ـ لا أعلم ولكن لدي شعور أن الفتى محق!!

ـ إذاً أين هم؟!!

تساءل إسماعيل بقلق.. فجأة صوت المراقب نفسه منادياً بقوة:

ـ الإسبان، الإسبان..

يتراكض الجميع وعلى رأسهم خير الدين إلى الجهة الأخرى من السفينة ليفاجأوا بسفينتين عملاقتين تقتربان منهما.. عاد خير الدين للتساؤل:

- سحقاً، من أين ظهرتا؟ وكيف لم نرهما من قبل؟.. (يصرخ في الجميع).. أعلنوا النفير العام واستعدوا للقتال يا رجال..

وبالفعل يتراكض الجميع على سطح المركب متخذين وضع الاستعداد للالتحام بالسفينتين.

* * *

على الطرف الآخر من سفينة العدو كان الكاردينال دوسينيسروس يضحك مقهقهاً، فيما سفينته وأختها، تقتربان من سفينة خير الدين..

- أخيراً وقعت في قبضتنا أيها الوغد العربي.. تقدموا يا رجال، ولا تبقوا منهم أحداً حين تواجهوهم، لا أريد أسرى، اذبحوهم جميعاً ولننتهي من هذا الأمر إلى الأبد..

أيّده مساعده:

- لقد نجحت خطة الخداع أيها الكاردينال، اختباؤنا خلف الجرف الصخري أمرٌ لم ينتبهوا إليه ولم يخطر لهم على بال..

- لم يروا شيئاً بعد يا عزيزي تلافيرا.. هيا! هجوم.

قبل الالتحام تطلق سفن الإسبان من أجهزة إطلاق بدائية سهاماً ضخمة كالرماح لتستقر في هيكل سفينة خير الدين، لتشدها إليها ثم تلتحم السفن الثلاث وينتقل الجنود الإسبان إلى سفينة خير الدين، وتنشب معركة حامية بين الطرفين تستخدم فيها بداية السيوف والخناجر والفؤوس والحبال، وكل ما يمكن الدفاع، أو القتال به، ورغم المقاومة الشجاعة والباسلة التي واجه بها خير الدين ورجاله جنود الإسبان الذين يفوقونهم في

العدد إلا أن المعركة بدت وكأنها تتخذ مساراً ينحو نحو هزيمتهم.. حتى إذا ما قاربت المعركة على النهاية فوجئ الإسبان بسلاح جديد ينقض عليهم فيحصدهم حصداً.. إنها البنادق.. مجموعة من خمسة رجال بينهم سالم وحسن تمركزوا على قمة إحدى الصواري وراح كل منهم يمطر الغزاة بطلقات مميتة ما أن تصيب إحداها جسد الإسباني حتى يخر صريعاً بلا حراك، ولكنها لم تكن سريعة بما فيه الكفاية، ثم إن البندقية الواحدة كانت بحاجة لإعادة حشو ذخيرتها في كل مرة، ما اضطر كل رجل من الرجال الخمسة إلى الاستعانة بثلاث بنادق، إلا أنهم كانوا يصيبون أهدافهم في مقتل، ففوجئ الإسبان بما يحدث ولم يصدق الكاردينال ما يجري حوله إلا حين سقط مساعده تلافيرا مصاباً إصابة مباشرة قاتلة في صدره من هذا السلاح.. تلقاه بين يديه وهو يصرخ مرعوباً.. فيما الأبخرة تتصاعد من ثقب في صدره راح ينزف بغزارة..

- تلافيرا..

- سيدي.

ثم غاب عن الوعي، بل عن الحياة، فسيطر الصمت على الكاردينال ليسمع في الوقت نفسه صيحات مرعبة قوية من رجال خير الدين زادت في رعبه ورعب رجاله ..الله أكبر.. ما دعاه رغم التفوق العددي إلى الصراخ في رجاله..

- تراجعوا.. تراجعوا.. سحقاً لهم، إنهم يستعينون بالشيطان علينا، تراجعوا.

ومع بدء انسحابهم زادت حماسة رجال خير الدين فاندفعوا في ملاحقة المنسحبين إلى سفنهم، واستئصالهم. وفي خضم المعركة يقرر الكاردينال أن يفر بجلده مع ثلة قليلة من رجاله عبر أحد قوارب النجاة إلى البحر تاركاً عدداً لا بأس به من رجاله يخوض معركة مصيرية من دون قيادة. . ما أضعف الروح المعنوية لمن بقي من رجاله، فحاول بعضهم اللحاق بقائده برمي نفسه في البحر والهرب سباحة فيما قتل من قتل وأسر من أسر. .

* * *

مع تباشير الفجر كان خير الدين يؤم رجاله، أو من تبقى منهم في صلاة الفجر على سطح السفينة على مرأى ومسمع مجموعة كبيرة من أسرى العدو الإسبان الذين راحت أعينهم تتأمل بقلق ودهشة ما يفعله المسلمون. . وبعد أن انتهوا من صلاتهم التفت خير إلى رجاله. .

- علي. .

- سيدي. . .

- افصل القادة عن الجنود وأنزلوهم إلى القبو، أما القادة فأريدك أن تشكل لجنة منك وممن تختارهم للتحقيق معهم ومعرفة ما تبقى من سفنهم، واهتموا بأمر الجميع، عالجوا من جرح منهم ووفروا الطعام للجميع. .

- وماذا عن السفينتين سيدي؟

- تولَّ أنت وآخرون قيادتهما؛ سنتجه إلى رودس وسنرى هناك رأينا إذا ما لاقينا عروج. . هيا.

[٤]
رب ضارة نافعة

ويهلك فرنانديز ملك أراغون زوج إزابيللا عام ١٥١٦ لترثه ابنته الوحيدة من إزابيللا الملقبة خوانة المعتوهة، التي تنازلت بدورها عن العرش عام ١٥١٧ لولدها الوحيد شارل أو شارلكان كملك لإسبانيا، ليبدأ فصل جديد من فصول النزال بين عروج وشقيقه خير الدين ورجالهما المجاهدين من جهة وبين عموم أوروبا وعلى الأخص إسبانيا، التي وضع مليكها الجديد الاستمرار في سياسة أسلافه تجاه المسلمين نصب عينيه، من جهة أخرى.

وفي الفترة نفسها شهدت العلاقة بين المجاهدين والسلطان الحفصي فتوراً وتوتراً قلقاً، حتى تفجر الخلاف بين الطرفين بشكل لم يدع مجالاً لأي شك بانفراط عقد التحالف السابق..

مع عام ٩٢٠هـ ١٥١٦م يستدعي الحفصي، أمير تونس، «عروج» للمثول أمامه.. يبدو عروج وسط بلاط الحكم الذي انتشر على جانبيه وزراء ومستشارو الأمير الحفصي، الذي بدا جالساً على عرشه يرمي «عروج» بنظرة غاضبة وقد انتصب

أمامه بثقة عالية.. صامتاً، ثم بعد برهة بادر الحفصي..
ـ عروج، ما تقول فيمن يخون أصحابه وعشيرته؟
بدا عليه عدم الارتياح، أطال الصمت ثم سأل:
ـ أصلح الله الأمير، ماذا يعني بهذا السؤال؟
ـ ألا تجيب أولاً؟
ـ الإجابة معروفة، وليس مثل الأمير من يجهلها.. خلق دنيء ولا يأتيه إلا من ارتضى السقوط وساءت دواخله.
ـ حسناً، وما قولك فيمن يخون عهد أميره ويخالف أمره؟
ـ عليه لعنة الله وخلقه..
ـ حسناً إذاً.. وما قولك فيمن ينزل أرض قوم ثم يكرمون وفادته ويحسنون ريادته ويعينونه على نوائبه ثم يخونهم ليفسد عليهم رأيهم وجمعهم؟
ـ أصلح الله الأمير، وهل كان قد بلغه عني أو عن رجالي ما ساءه؟!
ـ سوء، وأي سوء.. (ينهض من مقعده ويتوجه إليه).. أتنكر أنك ورجالك قمتم بمهاجمة سفن التاجر أليخاندرو الأسبوع المنصرم رغم علمك بأني أمنته لدخول تونس والخروج منها من دون أن تتعرضوا له؟
صمت لبرهة، تلفت حوله متفحصاً الوجوه حتى عثر على أحد الوزراء، تطلع إليه ثم عاد إلى الأمير..
ـ بداية أيها الأمير أنا ورجالي لسنا مجموعة من الشطار أو اللصوص حتى نتعرض لأيٍّ كان، إنما نحن مجاهدون، وعلى

هذا الأساس استضافنا الأمير وسهل لنا مهمتنا. . أما فيما يخص هذا الرجل فأنا لم أخلَّ بوعدك له أو أنكثه، بل بالعكس كنت أحترمه حتى بدر منه هو السوء أولاً ، فقد تعرَّض بسفنه عند خروجه قبل شهر لمجموعة من إخوتنا الفارين من الأندلس، وقبض عليهم ونقلهم إلى البندقية، وباعهم عبيداً لتجار وأثرياء نابولي، وقد علمت فيما بعد بأنها لم تكن المرة الأولى، بل قد كان يستغل كرم الأمير معه وتأمينه إياه، ورغم ذلك لم أتعرض له إلا بعد أن أنذرته بعدم تكرار ما حدث، وإلا فلن يمنعني عنه شيء، بل إني أبلغت وزيركم عرفان الدين ونبهته بأن يبلغكم بالأمر وكنت بانتظار الرد.

يعم الصمت القاعة فيما تقفز نظراته بين الوزير والأمير، حتى فاجأه الأمير وهو يدنو منه. .

ـ هو لم يبلغني بشيء.

ثم عاد الصمت سيداً للموقف، وما هي إلا لحظات حتى بادر عروج كالمستسلم أو من أسقط في يديه. .

ـ فهمت. . ومتى يأمر الأمير بخروجنا من جربة.

ـ عروج، لست أطردك، ولن أفعل، فقد دعوتك بنفسي ولن أتخلى عنك أو أقف في طريق جهادكم، إلا أن للملك عرفاً لا بد من احترامه، ولنا حلفاء ومصالح لا بد من مراعاتها رغم كل شيء.

عاد لصمته. . فهم قول الأمير ووعاه جيداً، المال والمصالح، هي التي تتحدث، فهي فوق كل اعتبار حتى ولو

كان الجهاد.. لم يختلف الحفصي عن الآخرين، هو وهم طلاب ملك، أما هو ومن معه فطلاب جهاد، وهذان طريقان لا يلتقيان مهما حاول هو أو هم.. فكان الصمت جواباً أبلغ من أي كلام.

* * *

لم يتعود أن يخفي عن رفاق الجهاد أمراً مهما بلغ من السوء أو السريَّة.. شعاره كان يعتمد على مشاورتهم في كل الأمور، في منزله اجتمع بهم: طرغود، صالح، أيدين، سالم وبالطبع خير الدين.. دار بينه وبين شقيقه خير الدين حوار ساخن عاصف وناري، طغت عليه حماسة الشباب وكاد التهور أن يطويه.. أطلق خير الدين لغضبه وحنقه اللجام حتى بلغ مداه في إنكاره لموقف الأمير ووزيره من جهادهم لنصرة إخوة الإسلام، وسط صمت طاغ من الجميع..

- ما كان يجب أن تصمت أمام صلفه وانحطاطه بهذا الشكل السافر.. كيف يجرؤ على الطعن بجهادنا وقتالنا أولئك المجرمين من دون أن ترد عليه.. نحن الذين حملنا أرواحنا على أكفنا ونتعرض للموت يوميّاً من أجل أن يستقر هو وأمثاله على عروشهم، ثم يكون جزاؤنا أن نتهم بالخيانة.. إن أردت رأيي، لا نبقى يوماً واحداً، بل أرى أن نستخدم قوتنا ونقيله من عرشه، فلا رد على أمثاله إلا بهذه الطريقة.

ويعود الصمت سيد الموقف حتى يبادر عروج.. بعد همهمة..

ـ هل من رأي آخر.. طرغود؟

ـ لا نبقى.. فالرجل يتحجج، وهذه ليست المرة الأولى.

ـ سالم؟

ـ بالنسبة لي لم أعد أثق به.. فلا أظنه سيتردد لحظة واحدة في إيذائنا.

أيده أيدين..

ـ سيكون من الصعب علينا أن نختار أهدافنا بسهولة، بل لا أبالغ إن قلت إني أخشى على جهادنا وانتصارنا منه.

يتنهد.. ثم بعد تفكير لبرهة..

ـ إذاً هكذا، لم يبق لنا إلا أن نستجيب لنداء حاكم بجاية، ولكن قبل هذا علينا ألا نخطئ الخطأ نفسه وأن نجد بديلاً لجربة، وبجاية.

قال أيدين:

ـ ما رأيك بولاية جيجل..؟

فسأل عروج..

ـ جيجل؟

قال طرغود:

ـ أجل.. جيجل ستكون مناسبة ولا سيَّما أنها قريبة من الجزائر.

بدا عروج مندهشاً وكأنه فوجئ وعلَّق..

ـ الجزائر..

يبتسم طرغود وأيدين وصالح فيما بدت علائم الاندهاش على محيا خير الدين..

* * *

من ميناء جيجل، المطلة على الساحل الشمالي للجزائر، قرر عروج أن يعيد الكرة على الجزائر لتحرير ما يحتلُّه الإسبان منها، إلا أنه هذه المرة قرر أن يبدأ بحاكمها سالم التومي لينهي الفصل الأخير من حكايته مع هذا الحاكم المتخاذل، الذي رضي باحتلال جزء من أرضه مقابل بقائه على كرسي الحكم.. وبالفعل، متفادياً القلعة والأراضي التي يسيطر عليها الإسبان، هاجم قوات التومي، التي تسيطر على الأراضي الساحلية فانتصر عليها في معركة حاسمة خاطفة أفقدت التومي صوابه.. فلم يجد بدّاً من الهرب وترك البلاد لقادتها الجدد..

* * *

في قصر التومي الذي استولى عليه عروج جلس على عرش الحكم فيه كحاكم للجزائر، وتوزع حوله رجاله ومستشاروه من الجزائريين، فيما انتصب أمامه رسول قائد الحامية الإسبانية التي تحتل القلعة يقرأ رسالة يذكر فيها الحاكم الجديد بوضعه في القلعة:

ـ وعليه فإن نيافة الكاردينال يذكّر سيادتكم بالوضع الذي عليه القلعة، باعتبارها أرضاً إسبانية وجزءاً لا يتجزأ من المملكة الإسبانية (اتحاد أرغون وقشتالة)، وبذلك فكل من على أرضها يجب أن توفر له الحماية والـ..

بقوة وبحدة قاطعه عروج:

ـ كفى.. اسمع يا هذا، نحن لا يهمنا من هذه الترهات شيء.. ارجع إلى كاردينالك وأبلغه بأننا نعتبر القلعة أرضاً جزائرية محتلة وسنمهلكم يومين لا أكثر لإخلائها، وإلا فلن نرحم منكم أحداً سيبقى فيها بعد هذا التاريخ.

ـ سيدي الحاكم أنتم بهذا تشعلون حرباً مع المملكة الإسبانية لا تدركون عواقبها.

وهو ينهض من كرسيه غاضباً..

ـ أيدين.

ـ سيدي؟

ـ إن لم يغادر هذا العلج الجزائر قبل حلول الظلام اضرب عنقه.

ـ أمر مولاي.

ارتعدت فرائص الرسول رعباً وأخذ يتحسس عنقه، وهو يتراجع غير مصدِّق ما يسمع من ردٍّ قوي وقاسٍ من عروج..

* * *

في القلعة كان الكاردينال، حاكمها، يتوقع مثل هذا الرد من عروج بعد أن خبره من قبل حين حاول في المرة السابقة وكاد أن يسقطها لولا استجابة التومي لخدعتهم.. يضرب بقبضته بقوة أحد أعمدة بلاط الحكم ويزمجر:

ـ سحقاً.. ذلك الوغد عروج.. (يصمت برهة ثم ينادي).. ألفونسو..

ـ سيدي

ـ ما تقريرك عن قواتنا.

ـ يمكن بما لدينا أن نصمد أسبوعاً..

ـ جيد، وقت كافٍ حتى يأتينا المدد، أرسل بطلب النجدة من إسبانيا.

ورغم المدد الذي وصل القلعة إلا أنه لم يكن لينقذها من مصيرها المحتوم، فقد تمكن عروج من إسقاطها بعد معارك طاحنة أبلى فيها هو ورجاله المؤمنون بلاءً نادراً ما يقارب الأسبوع، وبسقوطها تدين له الجزائر بأكملها ويُعلن حاكماً مطلقاً لها.

* * *

[٥]
في ذمة الله

كان عروج كأي قائد عسكري ناجح، وحاكم مثالي يشعر بالمسؤولية، وبما يعانيه مواطنوه وإخوته في الدين من آلام.. فمنذ الوهلة الأولى لإعلانه الجهاد كانت الأندلس وكان أهلها وما يتعرضون له من سوء معاملة وتعذيب، الشغل الشاغل له والهم الذي يحمله من ضمن هموم الجهاد التي قرر خوض غماره ولو استدعى ذلك التضحية بالنفس.. نعم الأندلس الجرح الوليد الذي فتق في غفلة من المسلمين.

فما يكاد أن ينصرم الربع الأول من العام ٩٢٤هـ ـ ١٥١٨م حتى يرسل عروج رسله إلى الدولة العليَّة العثمانية عارضاً على سلطانها سليم الأول، الذي تولى الحكم بعد وفاة والده يزيد الثاني سنة ١٥١٢م، فكرة مشروعه الطموح..

* * *

في اسطنبول حيث مقر الحكم جلس السلطان مع عدد من رجالات حكمه ووزرائه وقادة جيشه في اجتماعه الدوري بهم لمراجعة أهم الأمور وما يطرأ من مستجدات.. وبعد أن انتهى من قراءة إحدى الأوراق أمامه غمغم معقباً:

ـ يبدو لي هذا الرجل شخصاً طموحاً. . أقصد «عروج»، ما رأيكم أيها السادة فيما عرضه بشأن مشروعه لتحرير الأندلس؟. . (يرفع أحد الوزراء يده). . قل أيها الوزير.

ـ الحق يا مولاي، أرى أنها فكرة جريئة وتحمل الكثير من الإيجابية، هذا بالإضافة إلى كون نتيجتها سواء أكانت سلباً أم إيجاباً ستكون سنداً وعوناً في تدعيم سلطة مولانا وفي تسهيل توحيد ما تبقى من بلاد المسلمين تحت لواء السلطنة.

ـ نعم، نعم بلا شك، وذلك ما فكرت فيه. . فلا بد أن مشاركة السلطنة، أو على الأقل تقديمها الدعم لعروج في خطته لتحرير الأندلس واستعادتها من الإسبان، سيحسب لصالح السلطنة وتقوية أركانها، كما أنه واجب تمليه الشريعة والدين لنجدة الإخوان هناك. . إذاً الجميع يوافقني الرأي في تقديم الدعم المناسب لعروج وخطته. . وأرى أن نبعث له على وجه السرعة بـ ١٧ سفينة محملة بكامل المؤن والرجال للانضمام إلى أسطوله، على أن يتولى وزير دفاعنا مواصلة الاتصال به، ومتابعة نتائج حملته، وموافاتنا بتقرير مفصل بما يستجد.

ـ سمعاً وطاعة مولانا السلطان.

* * *

في شمال غرب الجزائر لا زال بني عبد الواد يحكمون مدينة تلمسان المطلة على البحر الأبيض المتوسط بواسطة أبي حمو بن المتوكل. . ولعل موقعها الاستراتيجي كمنطقة عبور بين المغرب وبقية مدن الجزائر، وبالتالي بين البحر

والصحراء، أهَّلها لأن تكون مطمعاً لكافة القوى المتصارعة على السواحل الأفريقية الشمالية، ومن هنا جاءت أهميتها..
أما حاكمها فأقل ما يقال فيه: إنه تكوين فاسد لا يحتوي على شيء ذي قيمة إنسانية، ناهيك عن فساد أخلاقه، وفي عهده جعل من المدينة رأس حربة لكل ما هو معادٍ للإسلام، ما حدا بجمعٍ من أهالي المدينة لدعوة شقيقه أبي زيان أحمد إلى تنحيته بمساعدة من الأخوين بربروسا، وبالفعل فقد تمَّ له ذلك حين أرسل له عروج قوة عسكرية تمكن من خلالها من هزيمة قوات ابن حمو، وإخراجه من تلمسان، وتسليم الأمور لشقيقه مقابل الاعتراف بسلطة الدولة العثمانية على أراضي المدينة..
وحين بلغ الإسبان ما جرى ثارت ثائرتهم على عروج وأبي زيان.

* * *

ينتفض شارل من مكانه وهو يسمع الأخبار القادمة من الجزائر..

ـ تباً لكم، تبّاً للشيطان! أي سوء ارتكبته حتى يعاقبني الرب بهذا المارق بربروسا وشقيقه الوغد.. بالأمس كانت الجزائر، واليوم تلمسان، وما تراه سيكون غداً؟. ويحكم أليس منكم من يأتيني برأسيهما؟.

يعم صمت لبرهة فيقطعه صوت جهوري..

ـ أظن بإمكاني ذلك أيها الملك المعظم.

ويسود الصمت الجميع، فيلتفت ليفاجأ بمن وقف بين الحضور بملابس عربية مميَّزة، تطلع فيه ثم سأل..

ـ من هذا؟!

ينبري أحد مستشاريه..

ـ إنه مولاي أبو حمو بن المتوكل، الحاكم السابق لتلمسان.

يدنو منه الملك.. يتفحص ملامحه باندهاش ثم يبادره..

ـ ماذا قلت؟!!

ردَّ أبو حمو..

ـ لو أعانني الملك بقوة من جيشه أظن أنه باستطاعتي أن آتيك برأسيهما.

ـ أمتأكد؟

ـ جربني يا مولاي

يرمي ببصره إلى من وقف بجانبه..

ـ ما رأيك أيها القائد؟

ـ عرض علينا خطة أظنها ستكون المفتاح لاسترجاع الجزائر كلها وليس تلمسان فقط..

ـ أيمكننا الوثوق به؟

ـ صديقٌ وفيٌّ منذ زمن بعيد.

يعود شارل إلى صمته مفكراً، ثم يبتعد عائداً إلى مقعده ويلتفت عند وصوله..

ـ حسناً أيها الكاردينال، فلتقدم لصديقنا كل الدعم الذي يحتاجه ولا تبخل عليه بشيء..

يرفع الملك يده إيذاناً بانصراف ضيفه وهو يبتسم، وبعد أن يخرج.. يهمس لنفسه..

ـ إلى حين أيها العربي القذر.

* * *

وتأبى الخيانة إلا أن تطل برأسها من جديد، لتعلن عن فصل آخر يحيق بأمجاد تلك الأيام السامية.. إيه أيها التاريخ كم من صفحاتك اصطبغت بلون أسود تعبيراً عن حزنها، وهي تذكر من بين ما تذكر تفاصيل تلك الخيانات وأسبابها.. ترى لم لا يتعلم منها الصغار، وذوي النفوس المريضة ليتوقفوا عن خياناتهم وعن السير في طريق السقوط والانحطاط..

وبمعونة الأجنبي يعود ابن حمو يقود جيشاً من بني الأصفر الإسبان لمقاتلة أهله وعشيرته، متناسياً في سبيل شهوة الحكم والمنصب كل ما يصله بهم من دين ورحم.. حاصر الإسبان تلمسان ودكوها بالمدفعية طوال ستة أشهر قاسية، فقتلوا من أهلها الكثير إلا أن «عروج» ورجاله رفضوا الاستسلام أو الخضوع للهزيمة، ومع انشغال خير الدين في صدِّ هجمات أخرى كان لا بد من أن يتضعضع الجبل وأن يسقط البطل شهيداً..

في الخامس من شوال ٩٢٢هـ الموافق ١٠ أكتوبر ١٥١٨م سقط البطل عروج بن يعقوب يوسف شهيداً مدافعاً عن حياض الأمة بعد أن أدَّى رسالته كاملة.. وعلى الرغم من ذلك لم يشف استشهاده غلَّ الغزاة المعتدين وحقدهم..

فأثناء جمع الأسرى العرب والترك.. وقد بدا قائد الحملة مشرفاً على ساحة المعركة من على متن إحدى السفن.. يدنو منه أحد مساعديه..

ـ سيدي القائد العام..

ـ ما وراءك أيها المساعد..؟

ـ لقد تمَّ جمع الأسرى وإحصاؤهم سيدي..

التفت إليه..

ـ ماذا عن جثة قائدهم عروج، هل عثرتم عليها؟

ـ ليس بعد، ولكن ما زال البحث جارياً عنها.

ـ حسناً لا حاجة بنا للأسرى.. مُرْ بقتلهم.

مندهشاً..

ـ ولكن سيدي؟!!

ـ نفذ ما أمرتك به أيُّها الضابط.

أسقط في يد مساعده..

ـ أمر سيدي.

وهو يهم بالانصراف باغته منادياً..

ـ اسمع.

ـ أمر سيدي.

ـ كم عددهم؟

ـ ١٥٠ مقاتلاً.. جلهم من الموركسيين.

ـ من الموركسيين.. (همهم).. آه، رعايا المملكة الفارين.. هيا نفذ.

* * *

.. قبيل شروق الشمس كانت الجوهرة السوداء تجرُّ خلفها سفينتين إسبانيتين بمن عليهما وفيهما من بحارة أسرى لترسو عند ميناء رودس، ويهبط منها بحارتها وهم يقودون أمامهم أسراهم من بحارة الإسبان، ويستقبلون من قبل الناس بالفرح والتهليل

لانتصار آخر.. ومن بين البحارة يهبط خير الدين وقد بلغ نهاية الثلاثينيات من عمره وقد طال شعره الشديد الاحمرار ونمت لحيته بشكل كبير، وفي معيته علي الأندلسي.. يستقبلان الناس وخصوصاً الأطفال بمرح وسعادة بل ويلاعبونهم حتى إذا ما سار إلى منتصف الرصيف واجه صالح، المساعد الأيمن لشقيقه، الذي يلقاه بوجه مكفهر وجسم مصاب إصابات بالغة، وقد بدت عليه إمارات الكبر وبدايات الشيخوخة.. ويتوقف الفتى وكأنه يشعر بأن «صالح» يحمل إليه أخباراً لا تسرُّ.. ما أن دنا منه..

ـ السلام عليكم..

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. مبارك النصر..

يرميه بنظرات تشكك وريبة..

ـ ما الأمر يا صالح، أراك وحيداً أين عروج؟

ترقرق الدموع في عيني صالح الذي يلزم الصمت ويكتفي بوضع يده على كتف خير الدين وكأنه يواسيه..

* * *

في دار متواضعة فرشت بالبسيط من الأثاث جلس خير الدين وعلي يستمعان إلى صالح، وهو يتحدث في أجواء مشحونة بالحزن والدموع والغضب..

ـ الأوغاد لم ينفذوا وعدهم.. تركونا حتى نخرج من الجزائر بعد أن فكوا الحصار فلاحقونا حتى ابتعدنا مئتي ميل وطوقونا بأكثر من عشر سفن ثم هاجمونا.. لم تكن المعركة متكافئة.. لم يكن لدينا العدد الكافي من الرجال.. كنا فقط

خمسين رجلاً.. خمسين سيفاً أمام أكثر من خمسة آلاف..
كانت مذبحة بكل معنى الكلمة.. لم يرحموا فينا إلّاً ولا
ذمَّة.. ورغم ذلك لم نسلم أو نهرب بل واجهناهم ولكن..
سقط عروج.. سقط بطلاً.. شهيداً، كما أحب وأراد
وخطط.. لم يسلم أو يستسلم.. كان يقاتل لوحده العشرات
منهم.. (يبتسم بسخرية).. لم يمت لوحده بل حصد منهم
الكثير قبل أن يقتلوه، فليرحمه الله ويجعل مثواه الجنة..
(التفت إلى خير الدين الذي اغرورقت عيناه بالدموع والألم
يعتصر قلبه).. أحسن الله عزاءك يا سيدي..

يتمتم.. وعيناه تفيضان بالدمع..

ـ فليرحمك الله يا أخي.

* * *

في الوقت نفسه كانت أخبار مقتل عروج تصل إلى مسامع
شارل، إذ يسرع أحد رجال القصر الملكي في برشلونة إلى
مليكه.. بعد أن يدخل عليه وسط حاشيته..

ـ مولاي ملك إسبانيا ونابولي المعظم.

يرميه بنظره صامتاً، ثم بهدوء..

ـ ما وراءك؟ يا هذا؟ خبر هزيمة جديدة!؟

يبدو محرجاً..

ـ بل نصرٌ باهر يا مولاي.. حققه رجالك الشجعان..

يعتدل وتبدو عليه الجدية..

ـ نصر، أيَّ نصر تعني؟!!

ـ شقيق شيطان البحر بربروسا المتوحش..

ـ ما به؟!!

ـ تمكن منه رجالك الشجعان في معركة الجزائر، واستطاعوا قتله ومن برفقته من القراصنة الأشرار..

ينهض من مكانه منتشياً فيما يلفت الخبر انتباه الموجودين..

ـ سأقتلك إن لم تكن متأكداً من الخبر يا هذا.

(يتقدم منه ليتسلم الرسالة ويقرؤها بنفسه).

ـ بل هناك ما هو أكثر، فالرسالة تقول إن فرساننا استولوا على الجزائر وأعلنوها محمية إسبانية.

وبعد أن يقرأ ترتسم ابتسامة بلهاء على محياه وهو يردد بفرح غامر..

ـ لقد قتل الوغد.. لقد تمكنَّا منه أخيراً.. لقد مات.. (ضحكات تتحول إلى قهقهات مدوية يصاحبها ما يشبه الهستيريا الحركية بفرح غامر).. لقد قتلوا القرصان اللعين، لقد تمكنَّا أخيراً من الشيطان..

وبعد عدة رقصات يقوم بها طرباً وفرحاً بمقتل عروج يتوقف في وسط الصالة العملاقة.. ويصرخ:

ـ الآن لم يعد أمامنا سوى شقيقه بربروسا ثم نملك كل أفريقيا..

ويعود للقهقهة والضحك..

* * *

وحيداً على شاطئ البحر جلس خير الدين مستغرقاً في تلاوة القرآن الكريم من دون أن ينتبه لمن حوله، وعلى بعد منه وعبر

فناء الدار المطلة على ساحل البحر، الممتد بزرقته إلى نهاية الأفق البعيد.. وقف مساعده علي، وإسماعيل صديق علي يتجاذبان أطراف الحديث، وقد بلغا منتصف الثلاثينات من العمر.

ـ هل سيستمر على هذه الحال طويلاً.. لقد مرَّ الآن أكثر من شهرين على وفاة شقيقه وعلى توقفنا عن محاربة أولئك الأوغاد الإسبان.. (لا يرد عليه علي ويكتفي فقط بالنظر إليه ثم العودة إلى مراقبة خير الدين)..

ـ ألن تتحدث إليه.. الأخبار القادمة من الجزائر وما حولها لا تسرُّ بالمرة.. (يلتفت إليه علي).. إنهم يستهترون بكل شيء، لقد اعتدوا حتى على المقدسات..

ـ لا فائدة، لقد أخبرته بكل ذلك.. ولم يجبني بشيء، فقط اكتفى بهز رأسه.. (يعود إلى النظر إلى خير).. إسماعيل:

ـ ما معنى هذا، هل سيتصوف ويترك كل شيء؟!!

ـ لا أعلم، في بعض الأحيان أشعر، وهو يواصل القراءة ليل نهار، وكأنه ينتظر شيئاً..

ـ شيئاً.. ماذا تعني؟!!

ـ كأنه ينتظر إلهاماً إلهياً أو رسالة من الله تعالى، يخامرني شعور أنه مدرك، ويهتم لما أخبره به إلا أنه ينتظر.. ما الذي ينتظره، لا أعلم..

ويلتزم الاثنان الصمت والنظر إليه عن بعد..

* * *

[٦]
عودة الروح

ذات صباح، وأثناء انشغال علي بتجهيز بعض الحاجيات يفاجأ بدخول خير الدين حاملاً القرآن، وعلى استعجال يلقي عليه التحية، فيلتجم لسان علي؛ وأخذ يراقبه مندهشاً وهو يتوجه صوب غرفته، ثم لم يلبث لحظات حتى خرج منها وهو يربط عمامته ويتأكد منها.. فيما أثار تجمُّد علي في مكانه واكتفاؤه بالنظر إليه دهشته فاستنكر ذلك وسأله:

- ما بك تقف هكذا كالتمثال؟!!!

- أنت تتحدث؟!!!!!

- أتحدث؟!!!

- أعني، بعد شهرين من الصيام عن الكلام أو الفعل أو..

يقاطعه وهو يستحثه:

- دعك من هذه الخزعبلات وهيا بنا، فقد توقفنا عن عملنا وقتاً طويلاً، ولا بد أن أولئك الكفار قد اشتاقوا إلى سيوفنا.. هيا بنا..

ويخرج، فيقفز علي من الفرح ويضم ياقوتاً السنجاب وهو يردد كالمصدوم:

- لقد عاد..

* * *

يصل الاثنان إلى الميناء حيث رست السفن التابعة لخير الدين، وسرعان ما ارتقى اللؤلؤة وسط دهشة أحد العاملين الذين يتولون تنظيفها وإسماعيل الذي صعد على سطحها من باطنها.. لرؤيتهما خير الدين وهو يعود إلى السفينة، وما إن أصبح على المقدمة حتى نادى:

ـ علي، إسماعيل.. اجمعا الرجال..

ـ لماذا أيها القائد.. هل ستسرحهم؟!!

مبتسماً..

ـ بل عائدون إلى العمل.. (يلتفت إلى أفق البحر).. لنلقن الإسبان دروساً لن ينسوها..

وتقرع الطبول ويُنفخ في الأبواق من على ظهر السفن التابعة للجوهرة السوداء، فتصل الأصوات إلى أسماع كلٍّ من كان على مقربة من الميناء أو حتى بعيداً عنه، وفي كل مكان فيه أحد البحارة وانتبه إلى الأصوات لم يصدِّق ولكن ما أن يستيقن الأمر حتى يترك ما بيده ويهرع إلى الصوت..

ويتوافد جميع البحارة إلى السفن الخمس الراسية خلف بعضها ويتجمهر غيرهم حتى يكاد العدد يصل إلى آلاف..

ووقف خير الدين على جناح الجوهرة خطيباً..

ـ أيها الرجال.. يقول جل وعلا في كتابه العزير.. بسم الله الرحمن الرحيم.. ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.. صدق الله العلي العظيم.. أما والله إننا قد فقدنا الكثير بفقدان القائد عروج، فقد كان قائداً من الطراز الأول، وبحاراً من

خيرة البحارة، ومسلماً لا يخيَّر عنكم في التدين واتباع أوامر ربه تعالى، والانتهاء عن نواهيه، وإن كان قد سبقنا إلى الشهادة، فأي مطلب للمسلم أكثر من هذا الشرف الذي يشرِّفه به تعالى حين يقرر أن يهب حياته في سبيل رفعة كلمته سبحانه، وإقرار شريعته التي ارتضاها لنا في الأرض.. ووالله إن كان ملوك الأرض يميِّزون من يخدمهم ويتفانى في خدمتهم بالنياشين والأنواط والأموال والمراتب، فإن ملك الملوك يميِّز من يحب ويرضى عنه من عباده المخلصين بالشهادة، ومن خلفها جنة عرضها السمٰوات والأرض والحمد لله على كل حال.. وإنما عروج رجل واحد قد صدق ربه واختط درباً ودعانا إلى مشاركته فيه فكان منه ما كان من إرهاب للكفرة الزنادقة، وهزيمة لهم في كل موقعة، وإنا إن شاء الله سائرون على دربه وندعو بدعوته، فمن أراد مشاركتنا فله ما لنا وعليه ما علينا، فحي على الجهاد، ومن أراد غير ذلك.. فإن الله لا يكلِّف نفساً إلا وسعها.. والصلاة والسلام على رسول الله وعبده، والحمد لله رب العالمين..

لحظات صمت تعمُّ الجميع مندهشين، حتى يرفع علي متحمساً سيفه عالياً وهو يردد:

ـ الله أكبر .. الله أكبر..

وتهتف معه الحشود..

ـ الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر..

ويظل الجميع يكبر ويهلل وهم يصعدون إلى السفن تباعاً..

ووسط فرحة غامرة تعم الجميع بمن فيهم القائد يلمح عن بعد بين حشود الأهالي الذين اصطفوا أمام السفن لتوديع المجاهدين من يحاول أن يشق الصفوف ليصل إلى الجوهرة.. لم يكن سوى طرغود، فأسرع إليه ليستقبله:

ـ السلام عليكم.. أيها القائد..

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. بشِّر.. ماذا فعلت؟

يخرج من بين طيات ملابسه علبة رسائل فاخرة أسطوانية الشكل ويلوح بها مبتسماً:

ـ لقد حصلنا على ما نريد..

ويتناولها منه ويبدأ في فضِّها..

ـ حقّاً!!!

ـ ما إن عرضت الأمر على كبير الوزراء حتى طار بي فرحاً ونقل الرغبة إلى السلطان سليم الذي أمرهم بمقابلتي، وعندما عرضت عليه الأمر وافق على الفور مقابل شرط واحد.. أن ندخل في الدولة العثمانية ونكون جزءاً من الجيش..

يرفع خير الدين إليه بصره ساهماً مطرقاً.. وكأن الأمر لم يعجبه.

ـ مقابل أن يهبك لقب بكليربك ويبقيك أميراً باسم الدولة على ما تحت يديك من جزر ومقاطعات مفتوحة أو ما ستفتحه في المستقبل، بل وأرسل أوامره إلى رجاله في مصر والشام ليمدونا بعشر سفن وستة آلاف رجل، للاستعانة بها ضد

النصارى من دون حتى أن ينتظر رأيك.. (برهة صمت فيما عينا خير الدين تركزان في وجه طرغود وكأنه مندهش من ثقة الخليفة).. لقد كان متأكداً من أنك ستوافق ما دام في الأمر خدمة للإسلام وأهله..

يبتسم خير الدين.. ثم يتمتم..

ـ الحمد لله والشكر له..

ويخر خير الدين لله شاكراً، وبعد أن انتهى.. سأله علي من خلفه:

ـ سيدي.. (التفت خير).. الجميع على أهبة الاستعداد للانطلاق.. فأين تريد أن تكون وجهتنا الأولى إن شاء الله..؟

ـ إلى الغرب.. حيث عنابة وسولو وقسنطينة.

طرغود..

ـ هي الطريق إلى الجزائر إذاً..؟

ـ لا بد من استعادتها بإذن الله تعالى.

ويتحرك الثلاثة يشقون طريقهم وسط الحشود المودعة..

* * *

من شرفة قصره المطلِّ على البحر الأبيض المتوسط في الجنوب من برشلونة يطلُّ الملك شارل الخامس على البحر الذي امتد أمامه بزرقته الهادئة التي داعب وجهها بعض الموج حتى تلاقى أفقه الأزرق مع زرقة السماء في وداعة وسكون.. وبدا بقربه أحد قساوسة الكنيسة وهما يتجاذبان أطراف الحديث.. استرسل القسيس:

ـ لا أظن مولاي الملك سيبخل على رعاياه المخلصين بهذا الطلب الصغير. . ؟

يرد بضجر:

ـ ألا ترى أيها الأب المبجل أن خطر المورسكيين قد زال بعد كل هذا الوقت الطويل، وأفعال مفتشي محاكم التفتيش فيهم.

ـ يا مولاي. . أنت لا تعرف هؤلاء المورسيكيين تمام المعرفة، فلم تعاشرهم، ولم تعش أيامهم حين كانوا يحكمون هم، ومن سبقهم من البدو أرضنا المقدسة كم عاثوا فيها فساداً وقتلوا ونهبوا واغتصبوا، إنهم أكثر خطراً وفساداً من اليهود أيها الملك، بل إني لا أذهب بعيداً إن قلت إنهم أشد خطراً من الشيطان نفسه علينا يا مولاي. .

التفت إليه مندهشاً. .

ـ أشد خطراً من الشيطان؟!!

ـ أجل يا صاحب السعادة. .

يتحرك الملك إلى زاوية أخرى. . يواجهه. .

ـ ولكن ما أعلمه أيها الأب المبجل أنهم أصحاب حضارة وعلم وفكر، وأن إسبانيا قد أفادت كثيراً من علومهم على الرغم من أفكار ديانتهم الغريبة. .

ـ لا تغرنَّك أقوال مثقفينا أيها الملك، إنما هي حضارة أبناء إسبانيا الذين أجبرهم هؤلاء المدَّعون على اعتناق الإسلام والدخول فيه، ولولا ذلك ما قامت لهم قائمة. .

ـ وماذا عن بقية البلدان التي أتوا منها.. ماذا عن بغداد ومصر والشام وكريت وكل شمال أفريقيا؟ أكانت حضارتها من فعل أبناء الإسبان أيها الأب المبجل؟. (يبتعد عنه الملك إلى زاوية أخرى تاركاً الأب يغرق في إحراجه.. ولكن الملك ينقذه)..

ـ على أي حال، أيّاً كان الأمر فلا نود لهم أن يعودوا إلى حكمنا مرة أخرى، وبأي ثمن يجب ألا تعود تلك الأيام، وأنا أتفق معك والآخرين فيما تذهب إليه..

مبتسما بفرح خبيث..

ـ أفهم من هذا أن مولاي الملك سيشرفنا بتوقيع المراسيم التي أصدرتها الكنيسة ضد الموركسيين وشمولها بالصفة الملكية..

ـ بالتأكيد أيها الأب.. سنفعل ذلك، فطب خاطراً..

وهو ينحني شكراً وتعظيماً للملك يخرج بظهره من الشرفة، ليصل في الوقت نفسه قائد الجيش.. أندريا دوريا.. الذي ظل ينظر إلى القسيس وطريقته الذليلة في الشكر.. بينما يرحب الملك بالقائد:

ـ صديقنا العزيز أندريا.. أهلاً وسهلاً بك.. (ولما يلمح وجهه مكفهرّاً).. ما بك، أرى وجهك مكفهرّاً..؟

ـ معذرة يا مولاي، ولكن كلما رأيت أحد هؤلاء القساوسة، تنتابني قشعريرة غريبة وكأني أرى.. (يصمت استحياءً)..

يستنطقه.. مبتسماً..

- ترى، ترى ماذا أيها العزيز.. قلها، لا تخف.. الشيطان أليس كذلك..

- مولاي!

- لا عليك، أنا أيضاً أشعر بشعورك نفسه.. بل إني أكاد أجزم بأن الرعية كذلك تشعر بالشعور نفسه.. فهم مجموعة من المدَّعين الوصوليين الذين لا يحسنون سوى المطالبة بالمال والمزيد منه حتى ولو أدى ذلك إلى قتل الأرواح.. (يرفع يديه بحركات تمثيلية).. في سبيل الرب.. (يضحك وهو يتطلع إلى السماء).. لا أعلم أي رب هذا الذي يرضى بأن نفعل ما نفعل بالآخرين باسمه.. أتعلم فيما جاءني هذا الحقير.. جاءني باسم الرب لأشمل بعطفي وبصفتي الملكية أوامر ومراسيم أصدرها بحق المسلمين.. أعني الموركسيين.. لا لدينهم، لا لزواجهم، لا لطعامهم، لا لمسكنهم، لا للغتهم، لا لممتلكاتهم حتى مسائل ما يورثه موتاهم يريد أن نحرِّمه عليهم.. أيُّ ربٍّ ترى هذا الذي يرضى بكل ما يفعله هؤلاء.. (يتلعثم فلا يجد كلمة ثم ينطق بسرعة).. رجال الشيطان.

- مولاي، هون عليك.. رغم كل شيء فلا زال الناس يسمعون كلماتهم ويأتمرون بأوامرهم ولا قوة لنا أو سلطان من دونهم..

متطلعاً إلى البحر..

ـ تلك حقيقة مرَّة.. وكم أتطلع إلى اليوم الذي نتخلص فيه من عبوديتنا لهم ولربهم.. (يلتفت إليه بسرعة).. على أي حال دعنا من هذا الأمر وأخبرني.. ما هي آخر أخبارك.. هل من جديد عن هؤلاء القراصنة أو من بقي منهم بعد مقتل كبيرهم؟

يصمت برهة ثم يتحرك إلى محاذاة سور الشرفة..

ـ الحق يا مولاي.. هذا ما جئت به إليك الآن..

ـ ماذا تعني أيها القائد..؟

ـ عيوننا في مصر أبلغتنا أن شقيقه.. بربروسا قد وصل إلى هناك، وضم إليه عشر سفن من سفن العثمانيين وزهاء خمسمائة قارب.

مندهشاً..

ـ خليفة المسلمين؟!!!

ـ أجل.

ـ هل انضم إليه.. ألم تقل من قبل أنك متأكد من أن مثل هذا الأمر لن يحدث، وأن درجة الشقاق بين الرجلين ستصل إلى حدِّ عصيان بربروسا وإعلان الاستقلال عن الخليفة..

ـ هذا ما كنا متأكدين منه حتى قبل أسبوع، فقد كان بربروسا مختفياً ولا نسمع عنه شيئاً طوال الشهرين الماضيين حتى تأكدت عيوننا من الإشاعات التي تداولها بحارته والناس عنه بأنه سيترك القرصنة ويتوجه إلى العبادة والتصوف، ولكنه فاجأنا قبل أسبوع بعودته إلى سيرته الأولى، بل وأقوى مما كان بتحالفه مع الخليفة..

يتجمد الملك في مكانه ثم سرعان ما يصرخ وهو يضرب بقبضته جدار السور..

ـ سحقاً لهم هؤلاء القراصنة، سيظلون دائماً يفاجئوننا بما لا نتصور.. تبّاً لهم..

ـ ذلك لم يعد مهمّاً أيها الملك، بل هناك ما هو أشد أهمية..

التفت إليه..

ـ ماذا تعني؟!!

ـ وجهته.. (يصمت برهة فيما الملك مصغٍ).. بلغنا أنه يحشد ليخرجنا من الجزائر.

وتلمع في عيني الملك نظرة تشاؤم وخوف مما يسمع..

* * *

مع منتصف ٩٢٣هـ ـ ١٥١٩م، وتحت جنح الظلام تدنو عدة قوارب صغيرة من أسوار إحدى المدن الجزائرية المطلة على ساحل البحر الأبيض.. (عنابة).. عدد القوارب كان ثلاثة، يحمل كل منها على متنه عشرة رجال وقد ارتدى الجميع ملابس سوداء غطت كامل أجسادهم فيما عدا الوجه الذي طلوه أيضاً بصبغ أسود ليموهوا وجودهم وسط الظلام الدامس الذي لف المكان وما حوله.. قاد القارب الأول خير الدين والثاني علي الأندلسي أما الأخير فقد كان بقيادة إسماعيل، ومع وصولهم قبالة الساحل ترجل الجميع عن القوارب، بعد أن ألقوا مراسيها في البحر، وأكملوا بقية المسافة إلى الشاطئ الصخري المحيط بالقلعة، سباحة.

* * *

على الجانب الآخر كان الوقت متأخراً ولم يكن يسمع في تلك اللحظات إلا هدير أمواج البحر التي تدفعها الرياح الشتوية الباردة، وهي تداعب أطراف القلعة المطلة على المياه.. وقد انتشر عدة جنود إسبان على أسوار القلعة على مسافات متباعدة، حيث يفصل بين كل واحد منهم والآخر ما يقارب عشر خطوات في نوبة حراسة ليلية.. لم يبد على أي منهم أنه قد لاحظ ما يجري على مقربة من القلعة في مياه البحر أمامهم، فقد انهمك بعضهم في تدفئة نفسه وآخرون في الحديث..

وسط هذا الجو الملائم واصل خير الدين ورجاله الثلاثون مهمتهم وقد انتشروا في طول حدود القلعة من الأسفل، ثم على الفور بدأت مجموعة منهم تخرج من حقائب على ظهورها أدوات تسلُّق تمثلت في كلاليب وحبال وزعوها على الجميع.. وعلى الفور كان خير الدين أول المتسلقين عبر تعليق أحد الكلاليب في شق بين الصخور، ثم حشر ما يشبه الإزميل أو المسمار الحديدي في شق قريب منه وصعد عليه، ثم من موقعه الجديد فوق المسمار يحشر كلاباً آخر ومسماراً آخر ويواصل، وبهذه الطريقة تسلق جدار القلعة ومعه الآخرون.. واصل الجميع التسلق حتى وصلوا إلى طرف السور العلوي حيث ينتشر الحرس؛ انتظروا إشارة القائد خير الدين، الذي تمكن بسرعة من الارتقاء إلى الممر الضيق في أعلى السور ومباغتة أحد الحراس في غفلة من الآخرين فقتله ثم استولى على سلاحه ما سمح

لمجموعته باللحاق به، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ تنبه أحد الحراس إلى الحركة رغم الظلام الدامس وصرخ:

ـ متسللون!

فانتبه الآخرون إلى الأمر وبدؤوا بشن هجوم على من صعد من رفاق خير الدين، الذي تصدى لهم مع مجموعته، الأمر الذي كان في صالح المجموعتين الأخريين، إذ إن ترك الجنود مواقعهم لمساندة رفاقهم سمح للعشرين الآخرين بالصعود والوصول إلى الممر..

لم يكن عدد الحراس كافياً لمواجهة المتسللين ما اضطر آخرين من الداخل للصعود لمساندتهم، فاشتبك الطرفان وبدت الكفة تميل إلى المتسللين الذين استخدموا أسلحة جديدة أشبه بالقنابل اليدوية الدخانية شديدة الانفجار، ما أوقع عدداً كبيراً من الإصابات في صفوف المدافعين، في الوقت الذي استغل فيه خير الدين ومجموعته الاشتباك للوصول إلى البوابة الرئيسة..

في الوقت نفسه كان هناك في البحر قوارب أخرى ولكنها أكبر وعلى مسافة قريبة من قوارب المجموعة الأولى بانتظار إشارة من المهاجمين، عبارة عن شعلة ضوء متحركة تعني أن التسلل قد نجح وأنهم في الداخل.. من بين هؤلاء حسن الذي غمغم:

ـ لقد نجحوا..

أمَّا صالح فتمتم:

ـ الحمد لله.. هيا يا رجال.. تقدموا بالقوارب إلى الساحل..

وبالفعل نشط المجدِّفون حتى وصلوا بسرعة إلى السواحل المقابلة للقلعة، وكانت القوارب تعدُّ بالمئات يحمل كلٌّ منها عدداً من المقاتلين، وما أن هبطوا حتى أسرعوا إلى القلعة يحاصرونها وهم يكبِّرون.. وما أن اقتربوا حتى فوجئوا ببوابتها تفتح لهم ليدخلوها ويشتبكوا مع جنودها في معركة حامية الوطيس استخدمت فيها كل أنواع الأسلحة الخفيفة وحتى النارية منها، كالبنادق التي استعان بها رجال خير الدين.. واستمرت المعركة بين الطرفين.. حتى انبلاج الفجر..

مع الصباح كانت المعركة قد حسمت لخير الدين ورفاقه وانتهى كل شيء، وبدت آثار المعركة جلية داخل القلعة التي امتلأت ساحتها الرئيسة بالمئات من جثث قتلى الإسبان، فيما في زاوية من المكان أخذ جمع من المقاتلين يجمع الأسرى الذين كان من بينهم بعض الأطفال والنساء ولما لمح خير الدين منظرهم وهم يقادون نادى:

ـ مهلاً أيها الرجل، توقف..

يتحرك من وسط رفاقه حتى يصل إلى من يقود الأسرى وهم مربوطون بعنف..

ـ ما هذا الذي تفعله؟

قال الجندي..

ـ أقود الأسرى إلى..

يقاطعه بقوة..

ـ ويحك، ومنذ متى كنا نأسر الأطفال والنساء والضعفاء..

ألست بمسلم يا هذا، ألم تبلغك أوامري بحسن معاملة هؤلاء؟!!
يبادره صالح وهو يتقدم إليه..
ـ اعذر الرجل يا سيدي، إنما هو جديد ولا يعلم من أوامرك شيئاً.. (يصل إليهما ثم يوجه حديثه إلى الرجل)..
فك وثاقهم يا هذا، واعمل على إكرام وفادتهم، والإحسان اليهم، فإنَّا قوم لا نسيء إلى من لم يسئ إلينا.
ـ ليس هذا فقط.. بل اجمعوا كل النساء والأطفال والعجزة ومن هو ليس بمقاتل وليعادوا إلى أهليهم، كلٌّ إلى بلده، فإنهم قد غرر بهم. أسرع أيها الرجل.
ـ أمر سيدي..
فيما يتوجه الرجل ومن برفقته إلى فك قيود الأطفال والنساء، التفت صالح إلى صاحبه خير الدين:
ـ والآن أيها الأمير..
بدهشة..
ـ الأمير؟!!.
يبتسم وهو يدير وجهه ناحية سور القلعة..
ـ نرجو الله ألا يُغير فينا شيئاً.
ـ لم تقل لي.. ماذا بعد عنابة؟
عاد ينظر إليه..
ـ سنتجه بإذن الله إلى سولو ثم قسنطينة حتى نخرجهم من عموم الجزائر إن شاء الله..
فجأه يرفع المؤذن الأذان مع رفع علم الدولة العثمانية ذي

اللون الأحمر بالهلال والنجمة، وأسفل منه علم خير الدين السيف ذو النصلين..

وبعد أقل من شهرين من العام نفسه يهاجم خير الدين مدينة سولو ويطرد منها الإسبان ثم قسنطينة ويرفع عليها رايات الإسلام..

* * *

أما في إسبانيا فقد كاد شارل ينفجر من الغضب في وجه قائده أندريا حين وصله خبر سقوط سولو، وفي حشد من قادته ومستشاريه الذين جمعهم في صحن البلاط صرخ:

ـ اللعنة، ما الذي تحاولون تبريره لي.. لقد هزمكم.. (تهدأ ثورته).. بعد أن كنا نظن أن مقتل شقيقه سينهي أمر القراصنة وإلى الأبد، وسينهي كابوس الرعب الذي سببه لنا وقطع به طرق التجارة البحرية بيننا وبين أوروبا، وأنه لن يكون لبربروسا هذا قوة شقيقه، أو حتى مكره، ولكن ها هو يفاجئنا كل يوم بما يشيب له شعر الوليد.. (ينهض من مقعده).. بالأمس كانت عنابة وسولو واليوم قسنطينة والرب يعلم ما يدبر لغد..

حاول أحد القادة التحدث..

ـ مولاي..

ـ اصمت عليك لعنة الرب.. (يصمت ويرمقهم بنظرات غاضبة).. وأنت يا أندريا.. ألم تعدني بأن تقضي عليه وعلى قوته، ألم تعدني قبل عام مضى بأنك ستقدم لي رأسه أو هو شخصياً كأسير أمامي هنا.. فأين وعودك أيها القائد؟

ـ ولا زلت عند وعدي لمولاي . .

قال أندريا . . فبادره الملك :

ـ تباً لك . . فما تقول إذاً فيما جرى حتى الآن؟

ـ لا تزال الجزائر في أيدينا أيها الملك، ولم يستول إلا على ثلاث مدن ساحلية ليست بالمهمة، وما أحسبه الآن إلا يعد العدة للانقضاض على الجزائر . . فإن أردنا استردادها منه والقضاء عليه فليس أمامنا إلا ما اقترحته على مولاي الملك من قبل . . لا بد من زيادة عدد المقاتلين والسفن إلى الضعف على الأقل .

يصمت الملك ثم يعود إلى مقعده وما أن يجلس حتى يتابع :

ـ اللعنة، ما كنت أظنه بهذا البأس . . حسناً . . ولكن جمع كل هذا العدد من القوات سيستغرق وقتاً طويلاً يا أندريا . . فكما تعرف فإن جل مقاتلينا مشغولون ما بين حروب الولايات الألمانية البروتستانية وما بين الانتشار في تلك الأرض الجديدة في أمريكا .

يقول أحد القادة الآخرين :

ـ إن سمح لي مولاي فإن لي رأياً!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أرى يا مولاي أننا لا نواجه أية مقاومة تذكر في تلك الأرض الجديدة، فلو أننا سحبنا منها نصف القوات الموجودة هناك، فأعتقد أن ذلك سيسمح لنا أن نجمع ما طلبه القائد أندريا ، وفي الوقت نفسه ترسل مبعوثين من جلالتك إلى ممالك نابولي وموناكو وبقية الأمراء الصليبيين المتضررين مثلنا من أعماله، طالباً الدعم للقضاء عليه، ولا أظنهم سيمتنعون عن دعمنا .

يصمت متطلعاً إليه:

ـ وماذا عن الوقت، أتظنون هذا الوغد سينتظرنا من دون مفاجأة حتى نحشد عليه؟

ـ الحكمة تقول، إن أردت أن تصطاد سمكة كبيرة فألق لها بطعم ينهكها، ولا بأس إن كسب بعض القلاع هنا أو هناك لنشغله عما ندبر له.

ويصمت شارل متطلعاً إلى قائد أسطوله البحري..

* * *

نهاية ٩٢٣هـ ـ ١٥١٩م.. تشهد معارك بحرية ضخمة بين سفن خير الدين وسفن الإسبان في البحر، حيث يصل الاشتباك بين الطرفين إلى ظهر السفن ويبدي فيها رجال خير الدين مهارات عالية في القتال والالتحام مع رجال البحر الإسبان.. ومع بدايات الربع الأول من عام ٩٢٤هـ ـ ١٥٢٠م ترفع الرايات العثمانية مع رايات خير الدين على مباني العاصمة الجزائرية بعد تحريرها من الاحتلال الإسباني..

* * *

في بلاط الملك شارل ملك إسبانيا اجتمع مع قائد أسطوله وقائد الأسطول الأوروبي المتحالف معه.. فرناندو ديغونزاغا وآخرون حول مائدة مستديرة نشرت عليها خرائط.. همهم وهو يفرك ذقنه وينظر بإمعان إلى الخرائط.. ثم يلتفت إلى أندريا..

ـ وهل هذا سيعني استرجاعنا الجزائر وبقية المدن التي خسرناها؟

ـ بل يعني أكثر من ذلك يا مولاي.. بخطتنا هذه وما حشدناه لها، سنتمكن من الوصول إلى قلب أفريقيا.. حيث مناجم الماس والأحجار الكريمة.

يعود لصمته ويطيل النظر إلى أندريا..

ـ وماذا لو فشلنا؟

ـ لن نفشل أيُها الملك، فقد حسبنا لكل خطوة حسابها بل لكل جندي موقعه، ونعرف مقدار قوة عدوِّنا واستعداده.

ـ والعثمانيون الأتراك؟

ـ ليس معه سوى ما قدموه له في مصر، وهم مشغولون عنه الآن بقتال البرتغاليين في اليمن، وعلى أيِّ حال أدخلناهم في حساباتنا إذا ما فكروا في دعمه، وليس لهم إلا طريق البحر، فلذلك وضعنا قوَّة قوامها خمسمئة سفينة ستحمي طول المياه الجزائرية خلف ظهورنا تحسباً لأي طارئ.

يتراجع عدة خطوات بعيداً عن المائدة وقد عقد يديه خلف ظهره، ثم التفت إلى الجميع الذين شخصت أبصارهم نحوه:

ـ تبدو لي مخاطرة كبيرة، فقبل عامٍ مضى كنا بمثل هذا التفاؤل الذي تبديه أيها القائد، وكنا نظن أنها النهاية، فإذا بهذا الوغد يقلب الأمور ويهزمنا شرَّ هزيمة انتهت بخروجنا من الجزائر، وأخشى ما أخشاه أن نقترف اليوم الخطأ نفسه.

ـ في المرة السابقة استهنّا بقوَّته، أما اليوم فنحن نقدِّرها جيداً، بل ونعرف كيف يحرك قواته ومن سيعينه إن احتاج، هذه المرة يا صاحب الجلالة لا مجال فيها إلا للنصر.

ـ تبدو واثقاً أيها القائد.

ـ بل وأكثر من ذلك.

يصمت شارل برهة مفكراً ثم يبادر من حوله..

ـ أيها السادة، إلى أفريقيا إذاً.

مئات السفن تتحرك من موانئ أوروبا المطلة على البحر الأبيض المتوسط، فيها أنواع وأحجام مختلفة من السفن ولأغراض عدَّة، فمن ناقلات للجنود إلى حاملات للعتاد والمؤن إلى سفن قيادة ومواجهة إلى غير ذلك، والجميع وجهته السواحل الجزائرية.. وعلى متن سفينة قيادة القلب وقف أندريا دورا وحوله مجموعة من مساعديه، فيبادره أحدهم بزهو وفخر:

ـ لا شك عندي أن ذلك القرصان وحثالته سيقتنعون الآن أن نهايتهم قد حانت.

ـ لم يعد ذلك مهمّاً الآن أيها السادة، فبربروسا لم يعد في حساباتنا بل ما هو خلفه.. أفريقيا وما تخبئه أراضيها البكر.

ـ معذرة سيدي، ولكن كيف ستكون الحال إن نحن وصلنا إلى هناك، أعني من سيتولى زمام الأمور؟

يلتفت إليه مبتسماً..

ـ عزيزي إدواردو، المدعوون إلى الولائم يحصلون على حصص متساوية منها، أما صاحب الدعوة فهو الذي يحتفظ لنفسه بأفضلها بالتأكيد..

الرياح الموسمية تدفع السفن بقوة نحو هدفها، ما يدعو أحد مساعدي فرناندو إلى القول:

ـ أعتقد بأننا سنصل بسرعة أكبر مما كنا نتوقع مع هذه الريح. .
ـ أتمنى أن نصل إلى هناك مع عيد سانت بارتلوميو حتى يكون للاحتفال به طعم خاص.
(ويضحك الجميع). .

* * *

في الجزائر العاصمة يشرع كل رجلٍ بتسليح نفسه استعداداً وترقباً للمعركة، فيما ملئت الطرقات بأكياس الرمال والعوارض والموانع للتصدي لأي هجوم أرضي.

أما على الساحل فقد أشرف خير الدين بنفسه على ترتيبات الدفاع وتسليح رجاله والقلاع المطلة على البحر، وها هو يتفقد سيراً على قدميه وسط ثلة من رجاله، بينهم صالح وطرغود العجوزين، قواته ويتأكد من خطة الدفاع وسط حركة محمومة شاملة.

ـ صالح. .
ـ سيدي القبطان. .
ـ هل تأكدتم من تسليح كافة الأهالي؟
ـ اطمئن أيها القبطان، لم نترك شيئاً للصدفة.
ـ قل إن شاء الله يا رجل، فلا نريد أن نخسر عون الله لنا في هذه الموقعة.
ـ كل شيء بإذنه سبحانه. .
يلتفت إلى أيدين. .
ـ هل من أخبار عن علي وإسماعيل؟
ـ ليس بعد.

ويصلون قبالة الشاطئ..

ـ حسناً، اعملوا على زيادة التحصين على طول الساحل، فلا نريد أية مفاجأة..

ويمرون بسالم وحسن المنهمكين بالحفر مع آخرين على طول الساحل.. يتوقف حسن ويتابع بنظراته خير الدين، فيلمحه سالم ويبادره:

ـ لأول مرة أراه قلقاً إلى هذا الحد؟

ـ لاحظت ذلك أنت أيضاً؟!!

ـ الأمر واضح جدّاً لا يحتاج إلى تفكير كبير..

ـ وما رأيك؟ أتظننا سننجو هذه المرة أيضاً؟ سمعت أنهم قد حشدوا لنا أساطيل أكثر من خمس ممالك.

ـ إذا أردت أن تعرف جواب سؤالك هذا فانظر إلى قبطانك.

ـ لم أفهم؟!!

ـ لهذا لا تصلح أن تكون قبطاناً..

ويعود إلى عمله..

مع سدول الظلام بدت السواحلِ الجزائرية تشع بأنوار المشاعل؛ وفي إحدى القلاع المطلّة على البحر وقف خير الدين في أعلاها وحيداً يتطلع إلى الأفق المظلم حتى باغته صوت من خلفه:

ـ ألن تنام؟

ـ وهل ينام صاحب مسؤولية؟.. كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيته..

ـ صدق رسول الله ﷺ.. ومن المسؤولية أيضاً أن تفكر في الاستعداد جيداً.. (يلتفت إليه خير الدين صامتاً).. لن تحسن القتال أو التفكير إذا ما أجهدت نفسك ولم تعطها حقها من الراحة.. وإن لبدنك عليك حقاً.. أليس كذلك؟

ويبدو عليه الاقتناع فيتحركا معاً.

* * *

في الصباح كان الأسطول الإسباني الأوروبي يشق طريقه في البحر نحو هدفه (٢٢ اغسطس) وفي مقدمة سفينة القيادة الضخمة بدا فرناندو وبجواره معاونه دورا يتطلعان في الأفق.. فيصل إليهما أحد المساعدين.

ـ **سيدي**:

يناوله لفافة.. وبعد أن يفضها فرناندو يسلمها إلى معاونه ويعاود التطلع إلى الأفق..

ـ يبدو أن الرب يرعى حملتنا.. أكاد أشعر بالنصر بين أيدينا.. (يلمح مساعده يتأمل السماء التي راحت السحب تتشكل في أطرافها فيما الرياح تشتد).. لا تقلق أيها القائد.. (يلتفت إليه دورا).. فهذه السحب والرياح إنما هي من علامات معونة الرب لنا..

ـ **أتظن ذلك أيها القائد؟**

يكتفي بإطالة التفرس في وجه دورا ثم يطلق ضحكة قوية وهو يتحرك بعيداً إلى أسفل السفينة.

وفي صباح يوم (٢٤ أغسطس) كان الجو قد بدت سماؤه

محتقنة بالغيوم المتراكمة السوداء، فيما هبت عاصفة قوية راحت تضرب الساحل الجزائري متلاعبة بمياه البحر الذي تلاعب بسفن الإسبان، ووسط هذه الحال ذعر البحارة والمقاتلون على السفن فيما التقلبات تقذف ببعضهم إلى البحر.. يصيح فرنانديز بقائده أندريا وهو يحاول التقدم إليه بصعوبة وسط الرياح العاتية..

ـ سيدي، أرى أنه من الأفضل أن نؤجل المهمة إلى وقت آخر يكون فيه الجو أفضل حالاً.

ـ لا تكن أحمق أيها القائد، لن أتراجع أو تهزمني عاصفة.. تقدم ولا تجبن..

ـ ولكن سيدي، أخشى أن تقوى العاصفة وتشتد فتصطدم السفن ببعضها.

يصرخ به:

ـ قلت لك تقدم وإلا أمرت بقتلك.. هيا.

وبالفعل ينفذ فرناندو الأمر، وتواصل السفن تقدمها بصعوبة بالغة وسط الأمواج المتلاطمة.. حتى وصلت خمس سفن قبالة الساحل وأصبحت على مرأى من المدافعين..

جيش خير الدين لم يصدق ما تراه عيناه.. فيعلق أحدهم وهو يرى اقترابهم:

ـ لا بد أنهم قد جنُّوا؟

صالح مبتسماً:

- بل قل إن الله يملي لهم ليأخذهم على أيدي المؤمنين إن شاء الله.

التفت إليه خير الدين فيما أيدين والآخرون صامتون، فلم يسعه إلا أن يهز منكبيه.. فيبادله خير الابتسام..

- حسناً إذاً فلنهاجم..

وما هي إلا لحظات على وصول المهاجمين ببعض القوارب إلى الشاطئ حتى صرخ فيهم خير الدين مكبراً ليلتحم الطرفان، ومع تكبيره تغيَّر الجو، فأمطرت السماء مطراً شديداً قويّاً، وازدادت قوَّة الرياح فراحت تتلاعب بسفن الإسبان وتقذف بجنودهم إلى البحر، وتحطم سفنهم وقواربهم، فيما تكفلت الأمواج بإغراق الجنود أما الباقون فقد قتلوا أو أسروا على يد المقاتلين المسلمين، ولم يمضِ وقت طويل حتى انتهت الحملة الإسبانية إلى الفشل الذريع والهزيمة الكاملة.

توقفت العاصفة وخفَّت الرياح العاتية لتنكشف الكارثة الإسبانية.. مئات من هياكل السفن المحطمة التي تناثرت قطعها على سطح الماء، أو على امتداد الساحل، وقد اختلطت بمئات الجثث.. على مرأى من زملائهم الأسرى الذين قُيِّدوا وجمعوا في زاوية من المكان، ومن بينهم بدا مساعد قائد الحملة فرناندو.. كانت محصلة انكفاء هذه الحملة، كما وصفها مؤرخو أوروبا، أكثر من ثلاثة آلاف قتيل إلى جانب أربعمائة أسير هم كل من بقي من آلاف المقاتلين..

وبينما الجميع في انتظار الأوامر، انهمك خير الدين بإمامة

جنوده في صلاة الشكر لله تعالى. . فيما ساد صمت مطبق على المكان فلا يسمع فيه إلا أصوات التكبير وقراءة القرآن. . وبعد الانتهاء تحرك خير الدين نحو الأسرى وحولهم رجاله. . تطلع فيهم صامتاً لبرهة ثم سأل:

ـ من منكم قائد الحملة؟

يبادر أحدهم وقد بدا مهلهل الثياب متسخ الهيئة:

ـ إنه القائد أندريا دورا، ولا أعلم مصيره. .

ـ ومن تكون؟

ـ فرناندو مابيل مساعده

ـ أيدين. .

ـ سيدي. .

ـ اجمع الأسرى، أكرموهم وأصلحوا شؤونهم، ثم افرزوهم بحسب أعمارهم، فإني أرى فيهم صِغاراً، فمن يثبت أنه أقل من سن القتال أطلقوا سراحه، أما الباقون فيساقون إلى إسطنبول مع الأسلاب ليرى السلطان رأيه فيهم.

ـ أمر سيدي.

ـ واترك لي أمر مساعد القائد هذا فلي معه شأن. . (بدا عليه القلق). . لا تخف أيها المساعد لن آمر بقتلك فلسنا مثلكم. . (التفت إلى أيدين). . نفِّذ أيها القائد. .

وبعد أن ينصرف أيدين مبتعداً لتنفيذ الأمر يبقى خير الدين ومساعد القائد. . بادره بسؤال. . وهو يعود لمراقبة أفق البحر:

ـ غريب أمر هذا البحر، فعلى اتساعه ورحابته يضيق في

بعض الأحيان، فلا تكاد أرجاؤه تتسع أحلام وتطلعات من يريد خوض غماره، وهو بهذا لا يعطي أسرارهُ إلا للذي يعركه ويلوي شكيمته.. ألا توافقني؟

صمت المساعد برهة متطلعاً إلى خير الدين ثم عقَّب:

ـ على الرغم من كونك رجل حرب، إلا أن كلماتك هذه تبدي شخصاً حالماً أقرب إلى الشاعر منه إلى المقاتل.

نظر إليه ودنا منه:

ـ أتظن ذلك؟.. (ويسود الصمت بين الاثنين برهة يتبادلان فيها النظرات ويتابع).. على أيِّ حال حيث نشأت لا فرق بين الشاعر والمقاتل، فالاثنان قد تضطرهما الظروف إلى خوض المعارك.. بالكلمة كما بالسيف، بل إن المقاتل في كثير من الأحيان يحتاج إلى شرف الكلمة في مواجهاته وتعامله أكثر من حاجته إلى السيف ليحقق النصر..

غرق الاثنان في صمت وتفكير.. بالنسبة للإسباني.. فكر في معنى الكلمات التي يسمعها لأول مرة متسائلاً: ترى ألكلمة المقاتل شرف؟! ولم يترك خير لفكر فرناندو أن يبتعد ليبادره بسؤال..

ـ قل لي أيها المساعد، ألست ترى أن على القادة دائماً أن يحافظوا على كلماتهم ومواثيقهم؟

ـ أمرٌ لا شك فيه.

ـ إذاً فلماذا حدث أنه بعد موقعة تلمسان التي قتل فيها أخي، وبعد أن استسلم المسلمون لجأ الإسبان إلى قتلهم.

لماذا لم يحافظ قائدكم على اتفاقه مع من استسلم؟
ـ لم يقتلهم الإسبان بل العرب المتحالفون معهم.
ـ وترى من كان قائد أولئك المتحالفين، هل كان عربيّاً أيضاً.. ثم ألا يمكن من قبيل المعاملة بالمثل أن أصدر أوامري بقتلكم جميعاً.
ـ أنت الآن المنتصر والقوي، وبإمكانك أن تفعل ما تشاء.
ـ هذا هو الخطأ الذي يقع فيه كل أولئك الذين يقاتلون بأمر الشيطان، برغبة الشهوة للامتلاك واستغلال الضعفاء.. حين تعينهم الظروف على تحقيق النصر يظنون أن ذلك يمنحهم الحق ليستبدلوا إرادة الله وأوامره بأهوائهم ورغباتهم المريضة فيفعلون ما شاؤوا بمن استسلم لهم.

* * *

مع نهايات خريف ١٥٢٠م كان لزاماً على نفس البطل العالية ألا تهدأ أو تستكين ما دام المحتل الإسباني لا يزال جاثماً على أرضٍ إسلامية.. هذه المرَّة ستكون تلمسان، لاسترجاعها أولاً، وللثأر لاستشهاد عروج ثانياً، فلم يكن مستغرباً لصالح أو أيدين حين أبدى لهم الرغبة في ذلك.. إلا أن طرغود كان له رأي مخالف.. سأله خير الدين:
ـ ولم ليس الآن؟!!
قال طرغود:
ـ أرى أن ننتظر حتى الصيف القادم، فالشتاء على الأبواب وليس في صالحنا أن نقاتل في الشتاء، خصوصاً وأن التيارات

حول تلمسان تكون قوية جدّاً مع حلول الشتاء، أضف إلى ذلك أننا بحاجة إلى صيانة عدد كبير من سفن الأسطول التي تأثرت كثيراً في المواجهات الأخيرة، ولا بد أن نكون مستعدين لتلك المعركة.

صمت خير الدين وهو يتطلع بإمعان إلى مساعده واستشعر في كلماته أمراً يكاد يخفيه، فلم يتعود من طرغود، المقاتل الشرس وصاحب البطولات التي سطرها معه أو من قبل مع شقيقه.. تبريراً للتأجيل مثل الذي أبداه، فهو يعرف المكان جيداً وحالة أسطوله إلا أن كلماته كانت غطاء لأمر آخر.. أتراه الملل من البحر أم هو أمر آخر؟! فقرر أن يقطع الشك باليقين ليتأكد.. قطع الصمت صالح..

ـ ما الأمر أيها الأمير، أراك صامتاً، هل ثمة سوء.

ـ كلا، لا سوء، إنما تذكرت أمراً.. دعونا نناقش الأمر فيما بعد.. بإمكانك أنت والآخرون الانصراف الآن.. ما عدا طرغود.

وبالفعل ينصاع الآخرون للأمر، ويخرجون تباعاً، حتى إذا ما خلت القاعة إلا منهما بادر خير الدين صاحبه:

ـ ما الأمر أيها البطل؟!

ـ أمر، أي أمر؟!!

ـ طرغود، نحن معاً منذ أمد بعيد، وكلانا يفهم الآخر أكثر من أي شخص في هذا العالم، فلا تظنني بالغرِّ الذي يمكن أن يصدق تبريرك لتأجيل استرداد تلمسان بهذه السهولة.

يعود طرغود ليغرق في الصمت، ثم يتوجه إلى النافذة هرباً على ما يبدو من نظرات خير الدين، ثم بعد برهة عاد قائلاً:

- أتصدقني لو قلت لك إنني أشعر بالجبن من هذه المواجهة؟!

- لو صدَّقت أن الأسد فجأة يمكن أن ينقلب أرنباً لمجرد أنه يكره اللحم لصدقتك.

- يبدو أني لن أقنعك بسهولة.

يدنو منه خير الدين ويباغته:

- إنه عروج أليس كذلك؟!!

يصمت برهة ثم يغمغم:

- بل ذكرى تلمسان بأكملها.. التجربة لم تبارح مخيلتي منذ تلك اللحظة المشؤومة التي احتضنت بها جسده وهو يسقط شهيداً، لم أصدق أن تلك الأسطورة يمكن أن تختفي من حياتي إلى الأبد.

- ويحك يا رجل، ألست مؤمناً؟

- بلى والحمد لله، ولكن..

- إذاً؟!

- ليس الموت ما أخشاه، فقد خبرني وخبرته ولم يعد يخيفني منذ الأيام الأولى، إلا أنه ألم الفراق وتلك البشاعة التي عومل بها جسده حين فصلوا رأسه و..

قاطعه خير الدين:

- وهل تظن عروج لو كان حيّاً سيوافقك على هذا الموقف

المتخاذل.. إنما هو رجل صدَقَ ما عاهدَ الله عليه ومضى إلى ربه راضياً مرضيّاً كما أحسبهُ ولا أزكّيه على ربه تعالى، ولن يضيره ما فعلوه به بعد استشهاده. وعلى أي حال هكذا هي أخلاق من نقاتلهم، لا شرف ولا مروءة مع الحي فكيف مع الميت؟! يا صديقي أرجو أن تتذكر إخواننا الأندلسيين وما واجهوه من تعذيب ووحشية على أيدي أولئك الوحوش، وما يواجهه هذه الأيام إخوتنا في تلمسان، وبقاع أخرى لا تزال تنتظرنا أن نحررها منهم.. فهل نذرف الدمع مع كل مواجهة ونجتر آلامنا أم نعدُّ العدَّة لننتهي من هذه المأساة إلى الأبد؟!

التفت إليه وابتسم:

ـ بل نعدُّ العدَّة لننهي المأساة.

ـ إذاً إلى تلمسان؟

ـ على بركة الله، ولنلقن الإسبان درساً لن ينسوه.

ـ انتقاماً لعروج.

يهز رأسه:

ـ انتقاماً لعروج.

* * *

وبعد التوكل على الله، خاض الأبطال معركتهم الجديدة مع الإسبان الذين كانوا يتوقعون مثل هذا الهجوم، فاستمرت المناوشات وقتاً طويلاً أبلى فيه خير الدين ورجاله بلاء أذهل الإسبان ومن خلفهم من الأوروبيين حتى أضحت المعركة مضرب الأمثال في الشجاعة وحسن الإدارة والإرادة. وأخيراً

تحقق النصر وأعاد خير الدين ورجاله تلمسان مرَّة أخرى إلى السيادة الجزائرية، ثم العثمانية، ومنذ ذلك التاريخ دانت السواحل الشمالية للقارة السوداء لسيادة خير الدين ورجاله.

وقد استطاع خير الدين أن يوطد نفوذه في الجزائر بعد أن تمكن عام ١٥٢٩م من الاستيلاء على القلعة التي كانت لا تزال في يد الإسبان، الأمر الذي جعل الملك شارل الإسباني يوجه ضده عام ١٥٣١ م حملة بحرية كبيرة بقيادة أندريا دورا، ولكنها فشلت مرة أخرى، للدفاعات الصامدة والمقاومة التي أبداها خير الدين ورجاله.. ولا شك أن هذا الفشل كان مؤثراً وكان لا بد من لقاء آخر فيما بعد بين الاثنين.

وكانت انتصارات بربروسا من العظمة لدرجة جعلت إبراهيم، الوزير الأول للسلطان العثماني سليمان القانوني، الذي تولى الحكم بعد وفاة والده سليم عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م يغري السلطان باستدعاء هذا القائد العملاق إلى إسطنبول.

* * *

في حديقة قصر السلطنة سار السلطان سليمان برفقة إبراهيم وزيره الأول.. بادره السلطان:

ـ تبدو متحمساً له يا إبراهيم؟

ـ لا يخفى على مولانا أني من المتابعين لسيرة الرجل وشقيقه الراحل عروج منذ أمد ليس بالقريب، وتحديداً منذ أيام والدكم السلطان ﷺ وكان ﷺ قد أمدَّهما بمساعدة جزيلة، وأمر بمتابعة أخبارهما، إلا أن انشغاله بمعارك أوروبا وضم

بقية الأراضي الإسلامية للسلطنة منعه من المتابعة، ولم يمنعني من تقفي آثارهما وآثار انتصاراتهما المذهلة على الإسبان.

ـ صدقت، فقد أبلوا، وخصوصاً بربروسا هذا، بلاء حسناً في معارك الجزائر والبليار وغيرها.. لقد سمعت أحد سفراء أوروبا يذكرهما لي بإعجاب شديد، ولقد أثنى على حسن اختياري لهما لقيادة الأسطول السلطاني ظنّاً منه أنهما من رجالي.

ـ لذا يا مولاي أرى أن نفيد من هذه الانتصارات لصالح السلطنة وتقويتها.

ـ وكيف ترى ذلك؟

ـ الحق يا مولاي السلطان ما أراه هو أننا قد وضعنا أيدينا على رجل بحر أصيل ويجب ألا نتردد لحظة واحدة في أن نمنحه لقب باشا، وأن تجعله عضواً في البرلمان، بل ولا أبالغ أن أقترح على جلالتكم أن تدعوه إلى إسطنبول لتنصبه قائداً أعلى للبحرية السلطانية.

يبتسم السلطان.. ويقول:

ـ مثيرٌ للاهتمام إعجابك به يا رجل، وكأني بك تتحدث عن ولدك وليس عن رجل غريب.

ـ إنما السلطنة همي يا مولاي.

ـ نعم، نعم، لا شك عندي في ذلك..

وبالفعل يستدعى السلطان خير الدين إلى بلاطه ويعينه قائداً أعلى للبحرية السلطانية عام ١٥٣٣م. وفي يوليو من العام نفسه

أبحر الأسطول التركي الجديد من القرن الذهبي ليرسو في منطقة استراتيجية رئيسة من البحر الأبيض معلناً عهداً جديداً من السيطرة الإسلامية على مياه هذا البحر ما أثار فزع أوروبا كلها . .

كان الأسطول يضم أكثر من ٨٤ سفينة حربية بقيادة خير الدين بربروسا، وبعد أن استدار الأسطول حول خليج مانابان وصل كالزلزال إلى مضيق مسينا واضعاً تحت رحمته طريق التجارة بين إيطاليا وصقلية.

* * *

وما تكاد الأخبار تصل إلى سمع مولاي حسن، من الأسرة الحفصية في تونس، حتى يسرع للبحث عمن يتحالف معه لحمايته ولعلمه في قرارة نفسه أن خير الدين، بعد أن بلغ ما بلغه من القوة، لن يتوانى في التوجه إليه، وخصوصاً بعد أن أعلن هو من جانب واحد الاستقلال عن الدولة العثمانية، ومرة أخرى لا يتورع الجبناء عن الاستعداد للانغماس في الخيانة مقابل دنيا زائلة . .

مرة أخرى في بلاط ملك الإسبان شارل . . وقف مولاي الحسن ذليلاً يطلب معونة للإبقاء على ملكه الزائل، إلا أن شارل كان أضعف من يقدم له شيئاً . . فقال له:

ـ للأسف يا صديقي، لن أستطيع هذه المرة، فقد كان خير الدين في المرات السابقة قرصاناً يقاتلنا بمفرده فنستعين عليه بقواتنا أو بحلفائنا أما هذه المرة فالأمر قد اختلف.

ـ وكيف ذاك أيها الملك؟

ـ ويحك يا هذا، ألم تصلك الأخبار؟ إنه الآن أمير البحر العثماني، ويقود أسطول السلطنة العثمانية، أي: إن وراءه آل عثمان وما يملكون من قوة وبأس، وحتى لو وافقناك على طلبك فلن أضمن لك بقية أوروبا على الأقل من حلفائنا بينهم، فلهؤلاء مصالح وعلاقات مع العثمانيين لن يخاطروا بها من أجل مملكة ساقطة أصلاً.. إن أردت نصيحتي، أرى أن تسرع إليهم لطلب ودهم والخضوع لهم حتى تنجلي الأمور.

وأسقط في يد الحسن، فأسرع إلى لملمة ما يحتاج، وما يعينه على الهرب، تاركاً تونس غنيمة سهلة لخير الدين الذي دخلها من دون مقاومة تذكر ليضمها إلى أملاك الدولة العليَّة، وتم تعيينه من قبل السلطان العثماني والياً على تونس والجزائر، وعرف في كل مكان من البحر الأبيض المتوسط كأعظم رجال البحر، ولم يكن له من منافس في ذلك سوى ذلك الجنوي أندريا دورا.

* * *

[٧]
الحالقة

مع منتصف صيف عام ١٥٣٨م عرض أندريا، المشغول دائماً في كيفية هزيمة عدوه اللدود بربروسا، على أمراء وملوك أوروبا خطته الطموحة لاختراق المضيق في خليج أكتيوم الذي يسيطر عليه الأتراك برّاً وبحراً، فيما يسيطر بربروسا على الجانب الآخر حارماً أوروبا من أي طريق بين إيطاليا وصقلية..

- هنا أيها السادة.. في خليج أكتيوم سأحرص على أن تكون نهاية بربروسا وقوته.

أحد الملوك يسأل:

- ولكننا دعمناك في المرّات السابقة ولم تفلح إلا في آخر مواجهة مع شقيقه، فما الذي يجعلك متأكداً من هزيمته هذه المرة خصوصاً مع ما بلغ من قوة وشأن عظيمين بتحالفه مع العثمانيين.

- لأننا في المرات السابقة لم نضمن قوة كالقوة التي أعددتها اليوم.. فقد تمكنت حتى الآن من جمع أكثر من ثمانين سفينة من مدينة البندقية وحدها، ومع ما ستقدمه بقيتكم سأتفوق عليه بما نسبته ١ إلى ٣ وهو ما سيضمن لنا النصر الحاسم.

ـ أمتأكد أنت بأن رجالات البندقية سيمدونك بهذا العدد من السفن أيها القائد؟!
ـ بل إنها تحت يديَّ الآن أيها الملك، ولو حصلت من هذا الاجتماع على إجماع بإمدادي بما أطلب فسأشن حملتي على بربروسا مع مطلع الخريف القادم.
يعم القاعة همهمات بين الجميع حتى يقطعها شارل بصوت عالٍ:
ـ وأنا أول من سيمدك بما تحتاج أيها القائد.. (ينهض).. أعلن أمام الجميع أني أمدك بخمسين سفينة، وبكل ما تحتاجه من مؤن وعدَّة وعتاد ورجال.. أيها السادة، لا بد لنا من التكاتف لمواجهة هذا القرصان ومن وراءه، فإن كان العثمانيون قد اختاروا الوقوف إلى جانب المجرمين وحمايتهم فعليهم أن يتحملوا نتائج مواقفهم.
ويعم الصمت الجميع..

* * *

وينجح أندريا بجمع ما يريد لحملته على بربروسا.. ثمانين سفينة مقاتلة من البندقية إضافة إلى إحدى وأربعين من عموم أوروبا ومعها خمسون سفينة من إسبانيا وحدها تحت قيادته، ومع خريف ١٥٣٨م يتحرك الأسطول الضخم باتجاه خليج أكتيوم لمواجهة بربروسا الذي قاد أسطولاً من ١٥٠ سفينة.
على متن سفينة القيادة (الجوهرة السوداء) جلس على مقدمة السطح الخارجي بربروسا متأملاً عن بعد مدينة بريفينزا

ومضيقها المفضي إلى البحر (الأيوني) وخلفهما الأراضي اليونانية. بقي صامتاً متأملاً حتى قاطعه طرغود:

ـ أتظنه حقّاً سيواجهنا هنا؟

التفت إليه ثم عاد إلى تأمله.

ـ هذا ما جاءت به الأخبار وأظنها صادقة.

ـ وما الذي يجعلك متأكداً؟

ـ يريد أن يعيد التاريخ.

ـ أي تاريخ؟!

ـ في هذا المكان قبل قرون دارت معركة بين كليوبترا ملكة مصر والإيطاليين الرومان.. وهزم في المعركة المصريون، وهو اليوم يبدو متفائلاً بإعادة التاريخ، ولكن هذه المرة باسمه:

ـ فهمت.. (يرمي ببصره إلى البحر).. على أي حال سمعت بأن عدد سفنه هذه المرة يفوق ما لدينا بنسبة كبيرة.

ـ لا يريد أن يترك شيئاً للصدفة..

ـ يبدو أن أندريا هذا مستاء منك كثيراً.

ـ ألم نهزمه في آخر ثلاث مواجهات؟!

ـ على أي حال الوقت يمرُّ ولم تجمعنا لشرح خطتك بعد، أم تراك تنتظر أمراً؟

ـ الصبر يا صديقي، الصبر، فما زال الوقت مبكراً على ذلك.. فقد يغير عدونا رأيه ويعدل عن خطته، فلا أريد أن أستبق الأحداث.. بالمناسبة ما أخبار صالح وأيدين؟

ـ لقد أتما ما أمرت به، فقد بثّا عيوناً لنا على طول السواحل اليونانية والمضيق، وما من شاردة أو واردة تتحرك في المكان إلا وسيكون لك بها علم في ساعتها..

ـ جيد.. جيد

وهو يستمر بمراقبة المشهد..

* * *

على الطرف الآخر، يواصل أندريا قيادة الأسطول الضخم نحو مكان المواجهة، مضيق أكتيوم.. سفنه شكلت ما يشبه الجناحين وهي تمخر عباب البحر فيما على رأس سفينة المقدمة بدا هو مع ثلة من مساعديه.. حول إحدى الموائد يراجعون الخطط.. بادره أحد ضباطه:

ـ لا أظننا سنكون في وضع جيد إن نحن دخلنا إلى داخل المضيق، ذلك أنه يتحصن في مسافة ضيقة ملأها بسفنه، ومن ثم لم يترك لنا مجالاً للمناورة، ثم لا تنسَ يا سيدي أنه يتحكم بكلا أطراف المكان، وخلفه أراضي اليونان المحتلة من الأتراك.. أي: إن له قاعدة إمداد خلفي ممتازة.

سأل أندريا آخر:

ـ وماذا عنك يا ألفونس؟

ـ أؤيد الرأي، بل إنني أرى أن نبقى على أطراف بريفينزا ونناوشه من هناك أملاً في استدراجه إلى المساحة المفتوحة، ومن ثم الانقضاض عليه في هذا المكان.

ـ هي خطة أكتافيوس إذاً؟

ـ سنحتويه ثم نسحقه بالقوة الضاربة فينتهي أمره إلى الأبد.
ـ فكرة لا بأس بها، خصوصاً وأن الريح على ما يبدو ستكون مواتية لتحركنا.

* * *

في يوم ٢٤ سبتمبر بدأت المناوشات الأولى للمعركة.. أندريا يطوّق المضيق بسفنه، ويرمي عبر القوارب المساندة ببعض بحارته وبالمدفعية سفن بربروسا الذي يكتفي بالبقاء محتمياً في داخل المضيق مع ردٍّ بالمدفعية وسط انتظار حذر من الاثنين..

خير الدين وهو يراقب الأوضاع مع مساعديه، يتناهى إلى أسماعهم صوت أحد البحارة..

ـ إحدى سفن الميمنة أعطبت.

عقّب صالح:

ـ إصابة مباشرة.. إنها تحترق.. هل نبتعد عن مرمى النيران؟

ـ كلا، ليبق الجميع في أماكنهم.. أيدين.

ـ سيدي.

ـ دع المدفعية تركز على تلك السفينة الراسية شمال أسطول أندريا، ليدكُّوها.. الوغد يظنني غرّاً ليستدرجني بهذه الخدعة.. سنرى من الأقدر.

* * *

وتنفّذ سفن المقدمة الأمر.. فتطلق قذائفها على الهدف،

الذي بدا سفينة من أكبر سفن أسطول أندريا، لتحدث فيها إصابات مباشرة. وما هي إلا برهة قصيرة حتى تشتعل بها النيران.. ما أثار حنق أندريا الذي بادر مساعديه قائلاً:

ـ سحقاً.. ذكي، لا بأس!

سأله مساعده:

ـ هل نرد؟

ـ كلا، لنبق على ما نحن عليه حتى حلول الظلام.. طرأت لي فكرة أظنها ستخرج الجرذ من جحره.

* * *

ومع حلول ليلة ٢٦، قرر أندريا أن يتحرك في عملية خداع جديدة فهمها بربروسا، فيما كان رجاله يساورهم الشك والقلق، وهم يرون اتجاه التحرك، قال علي:

ـ يتجه صوب اليونان.

عقَّب طرغود:

ـ يحاول استدراجنا للخروج من حصننا.

ـ خدعة مكشوفة..

قال خير الدين:

ـ لنلعب معه.

سأله علي:

ـ ماذا يعني القائد؟

فأيَّده طرغود..

ـ لا تقل بأنك ستتبعه!!

أكَّد خير الدين:

ـ ذلك ما سيحدث، إنها فرصتنا للانقاض عليه..

ـ ولكننا سنكون مكشوفين، أضف إلى ذلك استعدادهم لنا.

قال خير، وهو لا يزال يراقب:

ـ حركة سفنه ثقيلة والريح معنا والظلام حالك.. ما رأيك؟

يصمت برهة مفكراً ثم يجيب طرغود:

ـ تعني أن نسبقه ثم نطوِّقه قبل أن ينتبه؟

ـ وعندها سنسحقه.

وبالفعل يتحمس الرجال لخطة قائدهم، ويقررون اللحاق بسفن أندريا إلى عرض البحر حيث يستغل بربروسا خفة حركة سفنه، ودفع الرياح لها، ثم يتخفَّى في الظلام الذي لفَّ المكان ويخفي كل نور يمكن أن يظهر فيدل على سفنه، وينطلق تدفعه الرياح بسرعة شديدة، وفي الوقت نفسه كان قد ترك مجموعة من السفن كطعم بأنوارها تلاحق أندريا الذي بلع الطعم بسرعة كبيرة.

* * *

وهو يراقب أنوار السفن التي تلاحقه بدا أندريا ضاحكاً مقهقهاً منتشياً بنجاح خدعته، أو هكذا ظنَّ.

ـ ألم أخبركم بأنه لن يستطيع مقاومة غريزته في مهاجمة هدف مكشوف؟.

سأله أحد ضباطه:

ـ لقد أخرجناه مسافة كافية، فلنهاجم.

- كلا، ليس بعد، لا أريد لأيٍّ من سفنه الهرب أو الإفلات عند الهجوم، فلنبتعد به مسافة أكبر عن جحره!

ويواصل الأسطول التحرك حتى إذا ما بلغ مسافة مناسبة فوجئ أندريا ومن معه بالنيران تتساقط عليهم من كل صوب، من أمامهم ومن خلفهم وعلى الجانبين، ولم يصدق القائد عينيه وهو يرى القذائف تحصد سفنه بمن عليها، فصرخ برجاله كالمجنون:

- سحقاً للشيطان، ما هذا الذي يجري بحق الرب؟!!

- إننا نهاجم من كل صوب سيدي القائد.

- أيها الأبله وهل تراني أعمى، من هذا الذي يهاجمنا، عليه لعنة الرب؟!!

يقول ضابط آخر:

- إنه بربروسا سيدي.

- ماذا، هل جننت أيها الوغد، إنه خلفنا.

- بل هو في كل جانب، إنه تقريباً يطوقنا.

- سحقاً.. ردوا على النيران أيها الأوباش.

ويحاول رجاله تنفيذ الأمر ولكن لم يكن باستطاعتهم تحديد المكان الذي تنطلق منها القذائف لاستحالة رؤيتها وسط الظلام، ما حدا ببعض الرماة أن يطلقوا النار جزافاً فأصابوا سفنهم، وبسبب ذلك دبَّت الفوضى في سفن أندريا وفقدت قيادته السيطرة، وازداد الموقف حرجاً بهبوب عاصفة قوية زادت وضعه سوءاً على الرغم من استمرار المعركة حتى الصباح.

ومع انبلاج خيط الفجر كان أسطول أندريا قد تحول إلى هياكل محطمة، بعضها تأكله النيران، وأخرى تأخذ طريقها إلى عمق البحر غرقاً، فيما ولَّى أندريا مع من بقي معه هارباً يجرُّ أذيال الخيبة والخسران تاركاً لبربروسا أن يحوِّل البحر الأبيض إلى بحيرة إسلامية.

استطاع بربروسا بعد ذلك، على مدى سنوات أخرى، أن يحقق انتصارات جديدة على شارل ملك إسبانيا، ومن تحالف معه من ملوك أوروبا، الذين فقدوا أمامه أغلب سفنهم، وفيما بعد نجح خير الدين في استمالة فرانسيس ملك فرنسا لإضعاف القوة المتبقية فيما بات يعرف «بحلف الكفار».

وتحمل الأعوام التالية انتصارات عديدة جعلت من اسم خير الدين، أو بربروسا، واحداً من أعظم الأسماء التي ظهرت على مسرح الأحداث في البحر الأبيض المتوسط، ما أهَّله لمزيد من الثقة من قبل السلطان العثماني ومزيد من التكريم، فأقيم باسمه مسجد في إحدى ضواحي إسطنبول، وبقي معززاً حتى جاء اليوم الذي لا مفر منه حين سجل التاريخ على صفحة من صفحات عام ١٥٤٦م تلك الكلمات الخالدة.

«اليوم توفي خير الدين يعقوب - بربروسا -، ملك البحار وحامي العقيدة ومرعب الصليبيين».

رقم: 525 - 10